

سُورَةُ الْأَعْلَى



مِنْ تَسْبِيحِ الْوُجُودِ إِلَى اخْتِيَارِ الْأَبْقَى



تَأْلِيف: رَدَّاد السَّلَامِي

سُورَةُ الْأَعْلَى

مِنْ تَسْبِيحِ الْوُجُودِ إِلَى اخْتِيَارِ الْأَبْقَى



تأليف: رَدَّادُ السَّلَامِيِّ

مقدمة منهجية

حين يرفع الوحي الإنسان فوق ما يفنى

ليست سورة الأعلى نشيداً قصيراً يمرُّ على اللسان ثم ينقضي أثره بانقضاء التلاوة، وإنما هي بناءٌ إيمانيٌّ محكم، يأخذ الإنسان من أول كلمة فيه ليرفع بصره من منخفضات الأرض إلى جلال الرب الأعلى، ثم يعيده إلى نفسه وقد تحررت رؤيته من أسر الأشياء، وعرف موقعه من هذا الكون، وأدرك أن حياته ليست حادثةً عابرةً بين ميلاد وموت، بل امتحانٌ اختياريٌّ بين ما يذبل وما يبقى، وبين ما يلع لحظةً وما يضيء إلى الأبد. إن السورة لا تبدأ بالإنسان، لأن الإنسان لا يستطيع أن يفهم نفسه فهماً صحيحاً ما لم يبدأ بالله، ولا تبدأ بمشكلاته اليومية، لأن المشكلة الأعمق التي تفرع منها سائر مشكلاته هي اضطراب تصوره عن ربه، وعن الوجود، وعن الغاية التي من أجلها خلق؛ ولذلك جاء الأمر الأول حاسماً ومؤسساً: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾، فكأن أول خطوة في إصلاح الحياة أن تُنزه تصورك عن الله من كل نقص، وأن تطهر وعيك من كل وهم يجعل المخلوق نداً للخالق، أو يجعل سلطان الأسباب حجاباً يحجب القلب عن مسببها، أو يجعل الدنيا أعلى من حقيقتها حتى تستولي على المكان الذي لا يليق إلا بالله.

وسورة الأعلى، على قِصر آياتها، تختزن خارطةً كاملةً للوجود الإنساني؛ فهي تبدأ بالتسبيح، ثم تمضي إلى الخلق والتسوية، ومنهما إلى التقدير والهداية، ثم تعرض مشهد المرعى الأخضر وهو ينتهي غشاءً داكاً، لتضع أمام الإنسان صورة الدنيا كلها في لقطة كونية واحدة: نضارةٌ تُثير العين، ثم ذبولٌ يوقظ العقل. وبعد أن تؤسس السورة هذا الإدراك الكوني، تنتقل إلى تثبيت الوحي في قلب الرسول صلى الله عليه وسلم، وإلى بيان أن الرسالة التي تحمل الإنسان من تيه الأرض إلى وضوح الطريق محفوظةٌ بمشيئة الله، ميسرةٌ بعنايته، قائمةٌ على التذكير الذي لا يخلق الحقيقة من العدم، وإنما يوقظ في النفس ما غطته الغفلة، ويعيدها إلى العهد الذي ضاع تحت ركام الشهوة والعادة. ثم تنقسم أمام هذا التذكير طريقان: طريق من يخشى فيقترب ويتزكى ويذكر ويصلي، وطريق من يفرُّ من الهدى حتى يصير فراره عين هلاكه، فيصلى النار الكبرى، فلا يموت فيها فيستريح، ولا يحيا فيها حياةً تستحق اسم الحياة. ثم تأتي خاتمة السورة لتكشف العلة المستترة وراء أكثر الانحراف البشري: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾، فليست أزمة الإنسان دائماً أنه يجهل الحقيقة، بل قد يعرفها ثم يؤثر عليها ما هو أدنى منها، ويرى الطريق ثم يختار اللذة الأقرب، ويوقن بالباقي ثم يبيع يقينه للعاجل.

ومن هنا يقوم منهج هذا الكتاب على قراءة السورة بوصفها وحدةً متماسكةً، لا مجموعةً من المعاني المنفصلة؛ فالتسبيح في أولها مرتبطٌ بالآخرة

في آخرها، لأن من عرف أن ربّه هو الأعلى لم يجعل الدنيا هي العليا، ومن نزّه الله عن النقص نزّه غايته عن التفاهة، ومن أبصر أثر التقدير والهداية في كل مخلوق لم يتصور أن الإنسان وحده قد ترك هماً بلا طريق ولا رسالة ولا مآل. كما أن صورة المرعى الذي يصير غشاً أحوى ليست بعيدة عن قوله تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾؛ فالمرعى هو الدنيا حين تُرى في بداية ظهورها، والغشاء هو الدنيا حين تُرى من نهايتها، وبين النظرتين تُختبر حكمة الإنسان: أيُفتن باللون الأخضر العابر، أم ينفذ ببصيرته إلى المصير الذي ينتظر كل زينة لا تتصل بالله؟

وسنعمد في هذه الرحلة على الانتقال من الدلالة القرآنية الظاهرة التي يدل عليها اللفظ والسياق والنظم إلى الآفاق النفسية والفكرية التي يفتحها النص، من غير أن نحل الآيات ما لا تحتل، أو نستبدل بهديتها الواضحة رموزاً غامضة لا أصل لها؛ فالتدبر الحق ليس خروجاً من النص، بل دخول أعمق في نوره، وليس إطلاقاً للخيال بلا ميزان، بل إنصاتٌ إلى الكلمة القرآنية حتى تكشف امتدادها في النفس والواقع. سنقرأ الخلق والتسوية والتقدير والهداية بوصفها حقائق ربانية ظاهرة في الكون، ثم ننظر كيف تؤسس في الإنسان شعوراً بالمعنى والمسؤولية؛ وسنتأمل الوعد بالإقراء وعدم النسيان في مقامه النبوي الكريم، من غير أن نفصله عن دلالاته الكبرى في حفظ الرسالة وثبيت حاملها؛ وسنقف أمام التزكية والذكر والصلاة

باعتبارها حركة متكاملة تعيد تشكيل الذات، لا طقوساً متناثرة تؤدي على هامش الحياة؛ ثم تنتهي إلى المفاضلة بين الدنيا والآخرة، لا بوصفها دعوة إلى تعطيل الأرض، بل إلى تحرير العمل فيها من العبودية لها.

والاسم الإلهي الذي تنتظم حوله السورة هو معنى العلو المطلق: ﴿رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾. وهذا العلو ليس علواً يشبه صفات المخلوقين، فالله سبحانه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾، وإنما هو علو يليق بجلاله وكماله، منزّه عن الحدود والتمثيل، مستوجب لأن يعلو في القلب أمره، وفي العقل خبره، وفي الحياة شرعه، وفي ميزان الاختيار رضاه. وحين يستقر معنى «الأعلى» في الوعي، يعيد ترتيب الأشياء جميعاً؛ فلا تعود القوة البشرية هي الأعلى مهما تجبرت، ولا الثروة هي الأعلى مهما أغرت، ولا اللذة هي الأعلى مهما استبدت، ولا الخوف هو الأعلى مهما أحاط بالنفس، لأن كل شيء تحت سلطان الله، وكل مرتفع من الخلق محكوم بالزوال، وكل قدرة محدودة بأجلها، وكل نضارة سائرة إلى غنائها، وليس العلو الذي لا يعقبه انخفاض، ولا الكمال الذي لا يشوبه نقص، ولا البقاء الذي لا يهدده فناء، إلا الله الواحد القهار.

ومن روائع السورة أنها تربط الاسم الإلهي بالواقع الإنساني من غير أن تحوّل معرفة الله إلى فكرة ذهنية باردة؛ فالإيمان بأن الله هو الذي خلق يمنح الوجود أصله، والإيمان بأنه سوى يمنحه نظامه، والإيمان بأنه قدّر يمنحه

ميزانه، والإيمان بأنه هدى يمنحه وجهته. وبهذا لا يبقى الإنسان كائنًا ضائعًا في كون أصم، ولا ثمرة مصادفة لا تعرف لماذا جاءت وإلى أين تمضي، وإنما يصبح جزءًا من عالم أوجده علمٌ وحكمة، وأقام بنيانه تقديرًا محكم، وأودع في مخلوقاته هدايات تقودها إلى ما يصلحها. وإذا كان الله قد هدى كل مخلوق إلى وظيفته ومساره، فكيف يُظن بالإنسان، وهو المكلف العاقل، أن يُترك بلا وحي يرشده، وبلا ذكرى توقظه، وبلا طريق يبلّغه الغاية التي خلق لها؟

إن الخلل في واقع الإنسان لا ينشأ دائمًا من فقدان الوسائل، بل كثيرًا ما ينشأ من انقلاب المراتب؛ حين يصبح الأدنى أعلى، والوسيلة غاية، والعاجل أبقي في الشعور من الآجل، ويغدو الإنسان مستعدًا لأن يخسر نفسه كلها كي يحتفظ بشيء سيخسره حتمًا. ولهذا لا تعالج سورة الأعلى السلوك بمعزل عن الرؤية، بل تبدأ بإصلاح أعلى نقطة في الوعي: من الأعلى حقًا؟ فإذا استقام الجواب استقامت تحته منظومة القيم، وإذا اضطرب الجواب استولت الدنيا على القلب، وتحولت النعمة من جسر إلى الله إلى جدار يحجب عنه، وصار المرعى الأخضر نهاية البصر، فلا يرى المفتون به ما يتبها له من جفاف وتحول. إن أكثر مآسي الإنسان ليست في أن الدنيا قصيرة فحسب، بل في أنه يعامل القصير معاملة الأبدى، ويمنح العابر من

قلبه ما لا يمنحه للباقي، حتى إذا انكشف له الغشاء اكتشف أن الذي ظنه امتلاكاً لم يكن سوى شكل بطيء من أشكال الفقد.

ويهدف هذا التدبر إلى استعادة الوحدة التي تفككت في العقل الحديث بين معرفة الله ومعرفة العالم، وبين العبادة وبناء النفس، وبين الوحي والواقع، وبين الآخرة والعمل في الدنيا؛ فالتسبيح ليس انسحاباً من الكون، بل هو تصحيح لطريقة رؤيته، والتفكير في الخلق ليس ترفاً عقلياً، بل طريقاً إلى إدراك الحكمة والمسؤولية، والذكر ليس حركة لسان منعزلة، بل استعادة دائمة لمركزية الله في الوعي، والصلاة ليست انفصلاً عن الحياة، بل إعادة تنظيم لها تحت نداء الأعلى. وحين تقول السورة: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ **وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى**، فإنها ترسم مساراً صاعداً يبدأ بتطهير الذات من سلطان الهوى، ثم يملاً الفراغ بذكر الرب، ثم يترجم هذا الوعي إلى عبودية حية؛ فالتزكية تخلية، والذكر امتلاء، والصلاة اتجاه، واجتماعها هو الفلاح الذي لا تقيسه كثرة الممتلكات، بل مقدار ما تحرر الإنسان من عبودية ما يفنى واتصل بما يبقى.

أما الأثر العملي الذي ننشده من هذه القراءة، فليس مجرد زيادة المعلومات حول السورة، وإنما إعادة تشكيل المعيار الذي يزن به الإنسان نجاحه وفشله، وربحه وخسارته، وقربه وبعده؛ إذ لا قيمة لتدبير يضيء

العبارة ولا يضيء الطريق، ولا لبلاغةٍ تهز الوجدان لحظةً ثم تترك الإرادة في سباتها القديم. إن سورة الأعلى تريد أن تجعل التسبيح طريقةً للنظر، والخشية طريقةً للاستقبال، والتزكية طريقةً لبناء الذات، والصلاة طريقةً للاتصال، والآخرة معياراً للاختيار؛ وحين تتحول هذه المعاني إلى بنية داخلية، لا يعود المؤمن يرفض الدنيا، لكنه يرفض أن تستعبده، ولا يهجر أسبابها، لكنه لا يخلط بينها وبين رب الأسباب، ولا ينكر جمال المرعى، لكنه يتذكر الغشاء حتى لا يبيع الباقي من أجل اخضرارٍ قصير.

وسنرى في نهاية الرحلة أن السورة، وهي تختم بالإشارة إلى ﴿صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾، تخرج بمعانيها من حدود اللحظة التي نزلت فيها إلى امتداد الرسالة في التاريخ؛ فالحقيقة التي تقرر أن الآخرة خيرٌ وأبقى ليست موعظةً طارئةً لأمة واحدة، بل أصلٌ قديم في خطاب السماء للإنسان، لأن معضلته الكبرى لم تتغير وإن تغيرت أدواته ومدنه وأسماءه. لقد ظل الإنسان عبر العصور يفتن بالعاجل، ويحتاج إلى من يوقظه من سحر اللحظة، ويخبره أن ارتفاع الأبنية لا يعني ارتفاع الغايات، وأن اتساع الملك لا يعني اتساع الروح، وأن الحضارة التي تثقن صناعة الوسائل قد تظل فقيرةً إذا جهلت الغاية، وأن أعظم تقدم يحرزهُ المرء ليس أن يصل إلى أبعد نقطة في الأرض، بل أن يرتفع من عبادة الأدنى إلى معرفة الأعلى.

هكذا ندخل سورة الأعلى: لا باعتبارها نصًّا نحاول أن نفرغ معانيه،
فعاني القرآن لا يحيط بها قلم، وإنما باعتبارها نوراً نضع أنفسنا في مداه،
ونراقب كيف يعيد ترتيب الداخل، ويصل بين حركة العشب في الأرض،
وحركة الوحي في القلب، وبين التقدير في الكون والتكليف في الإنسان،
وبين الذكر في الدنيا والفلاح في الآخرة. إنها سورة تبدأ بأمرٍ للسان، لكنه
سرعان ما يصبح ثورةً في التصور، وتنتهي بذكر الصحف الأولى، لتقول إن
الطريق واحد وإن طال التاريخ: تنزيهٌ يحلّ العقل، ووحىٌ يهدي القلب،
وخشيةٌ توقف الضمير، وتزكيةٌ تنقذ النفس، وصلاةٌ تصل العبد بربه،
وبصيرةٌ تختار الأبقى حين يتزاحم أمامها العاجل والآجل.

ومن هنا تبدأ الرحلة؛ من الكلمة التي تُسقط عن القلب كل علو زائف،
وتضعه أمام الحقيقة التي إذا استقرت فيه استقام كل شيء:

﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾.

الفصل الأول

التَّزْيِيهِ الْكُونِيُّ وَالتَّهَيُّةُ النَّفْسِيَّةُ

الآيات من الأولى إلى الخامسة

قال الله تعالى:

﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ۖ وَالَّذِي قَدَّرَ
فَهْدَى ۖ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ۖ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى ۖ﴾

التسبيح بوصفه تحريراً للوعي

تفتتح السورة بأمرٍ لا يطلب من الإنسان كلمةً يقولها فحسب، بل يطلب منه أن يعيد بناء تصوّره كله: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾؛ فالتسبيح في حقيقته أوسع من أن يكون حركةً على الشفتين، وإن كانت كلمة «سبحان الله» من أجلّ الأذكار وأحبها إلى الله، لأنه تنزيهٌ للقلب عن كل خاطر لا يليق بجلال الرب، وتنزيهٌ للعقل عن كل تصور يقيس الخالق على المخلوق، وتنزيهٌ للحياة عن أن يحكمها خوفٌ أو طمعٌ أو ولاءٌ ينازع حق الله في التعظيم والطاعة. وحين يأمر الوحي بالتسبيح، فإنه يطهّر الداخل من أصنام خفية قد لا تُنصب في المعابد، ولكنها تُنصب في الضمائر: صنم القوة حين

تُرى مطلقة، وصنم المال حين يُظن قادراً على شراء الأمان، وصنم الذات حين نتوهم أنها تصنع مصيرها مستقلةً عن خالقها، وصنم الواقع حين يتحول من ظرف قابل للتغيير إلى قدرٍ مقدس لا يُراجع ولا يُقاوم.

إن كل انحراف في تصور الإنسان عن الوجود يبدأ حين ينسى الحدود الفاصلة بين الرب والمربوب، والخالق والمخلوق، والمطلق والمحدود؛ فيمنح البشر شيئاً من خصائص الكمال، أو يتخيل أن الأسباب تعمل بذاتها، أو يظن أن الأحداث خرجت عن سلطان الله لأن حكمته لم تظهر له. والتسبيح يأتي ليعيد هذه الحدود إلى مواضعها: الله كاملٌ لا يلحق علمه نقص، وعادلٌ لا يشوب حكمه ظلم، وحكيمٌ لا يقع في تقديره عبث، وقادرٌ لا يعجزه شيء، ورحيمٌ لا تخلو أقداره من الرحمة وإن خفي وجهها على العبد. وليس معنى ذلك أن الإنسان يدرك سر كل ما يقع، وإنما معناه أنه حين يعجز عن إدراك الحكمة لا ينسب النقص إلى الحكيم، بل ينسب القصور إلى بصره المحدود؛ فكم من حدثٍ بدا في لحظته جرحاً محضاً، ثم انكشف بعد زمنٍ أنه كان باباً إلى نجاة، وكم من حرمان ظنه صاحبه سقوطاً، فإذا به سياجٌ حال بينه وبين هاوية لم يكن يراها.

ولهذا كان التسبيح تربيةً على التواضع المعرفي، لأن العقل حين ينزّه الله يعترف ضمناً بأنه ليس مقياس الحقيقة النهائي، وأن ما غاب عنه ليس

معدوماً، وأن عجزه عن فهم الحكمة لا يعني غيابها. إن الإنسان يرى مقطّعاً صغيراً من الزمن، بينما يتعلق علم الله بالبدايات والنهايات وما بينهما؛ ويرى الإنسان ظاهر الحادثة، بينما يحيط علم الله بما تتركه في النفس، وما تدفعه من شر، وما تفتحه من خير، وما يتولد عنها في أجيال لم تأت بعده. ومن هنا لا يكون التسبيح إغناء للعقل، بل إنقاذاً له من الغرور؛ إذ يظل العقل باحثاً ومتأملاً وسائلاً، لكنه لا يحول جهله إلى اتهام، ولا ضيق أفته إلى حكم على الحكمة الإلهية.

اسمُ الربِّ وبناءُ العلاقة

لم تقل الآية: «سبح اسم الله الأعلى» لحسب، بل قالت: ﴿اسْمُ رَبِّكَ﴾، لتفتح في الأمر بالتنزيه باباً من القرب والرحمة والرعاية؛ فالرب هو المالك المدبر، والمربي لعباده بالنعم والأقدار والهدايات، والذي ينقل المخلوق من حال إلى حال حتى يبلغه كماله الذي قُدِّرَ له. وإضافة الرب إلى المخاطب في قوله: ﴿رَبِّكَ﴾ تجعل التسبيح خارجاً من معرفةٍ حميمة لا من تصورٍ تجريدي بعيد؛ فأنت تسبح ربك الذي خلقك، وسوّى كيانك، وقَدَّرَ مسارك، وهداك إلى أسباب بقائك، وأرسل إليك وحيه كجلا تضيع بين اندفاعات النفس وضجيج العالم. إنه ليس ذكراً لقوةٍ مجهولة تحكم الكون من بعيد، بل عبادةً للرب الذي تتابع آثار ربوبيته في الأنفاس والخللايا، وفي لحظات المنع

والعطاء، وفي الطريق الذي فُتح لك، والطريق الذي صُرفت عنه، وفي المنحة التي عرفت قيمتها، والنعمة التي لم تدرك أنها كانت تحيط بك إلا حين أوشكت أن تفقدها.

والربوبية ليست تدليلاً للنفس على هواها، بل تربيةٌ قد تأتي بما تحب، وقد تأتي بما يصلحها وإن كرهته؛ فالأم التي تمنع طفلها ما يؤذيه لا تنقص رحمته لأنها خالفت رغبته، والطبيب الذي يفتح موضع الألم ليزيل الداء لا يوصف بالقسوة لأنه أوجع الجسد ساعة لينقذه من وجع أطول. والله المثل الأعلى؛ فقد يربي الله عبده بالفتح حتى يعرف الشكر، ويريه بالمنع حتى يعرف الافتقار، ويريه بالتأخير حتى ينضج قلبه لاستقبال ما طلب، ويريه بسقوط بعض ما اتكأ عليه حتى يتعلم ألا يجعل ثقته النهائية إلا في الحي الذي لا يموت. وحين يتأمل المؤمن معنى ﴿رَبِّكَ﴾، يكتشف أن كثيراً مما حسبه تعطيلاً لمساره كان جزءاً من تربيته، وأن بعض الأبواب لم تُغلق في وجهه لإهانتته، بل لأن وراءها ما لا يليق بوجهته، أو لأن الله كان يهيئه لبابٍ أوسع لم يكن يستطيع دخوله بتلك النفس القديمة.

«الأعلى» وانهيار العلو الزائف

ثم يأتي الاسم الوصفي المهيب: ﴿الْأَعْلَى﴾، فيستقر في قمة السورة وقعة الوعي معاً؛ فالله سبحانه هو الأعلى علواً يليق بجلاله، منزهاً عن مشابهة

المخلوقين، وهو الأعلى في كمال أسمائه وصفاته، والأعلى في قهره وسلطانه، والأعلى في حكمه وشرعه وتقديره. وإذا وقر هذا المعنى في القلب، هانت أمامه مظاهر العلو المصطنع التي طالما أرعبت البشر؛ لأن كل متجبر مهما ارتفع تحت قهر الأعلى، وكل سلطان مهما امتد محصوراً في الزمن، وكل صوت يملأ الأرض صخباً سيعود إلى الصمت، وكل يد ظن صاحبها أنها تمسك مصائر الناس عاجزة عن أن تمنع عن نفسها مرضاً أو شيخوخة أو موتاً.

إن الطغيان لا يبدأ حين يمتلك الإنسان القوة، بل حين ينسى أن فوق قوته قوة، ولا يبدأ الاستعباد حين يخضع الجسد وحده، بل حين يمنح القلب مخلوقاً علواً لا يملكه. ولذلك يحرر اسم «الأعلى» المؤمن من الانكسار الباطني أمام البشر؛ فلا يعني هذا أن يستخف بالأسباب أو يندفع بغير حكمة، ولكنه يعرف أن الوقائع التي تبدو ضخمة ليست أكبر من قدر الله، وأن الذين يتصدرون المشهد لا يمسكون نهاياته، وأن التاريخ لم يكن يوماً ملكاً لأصحاب الضجيج وحدهم. كم من يد كتبت قراراً ظنت أنه سيعلق المستقبل، ثم مزق الزمن قرارها وبقي الحق الذي حاربت، وكم من صوت خافت حمل كلمة صادقة فمات صاحبها، ثم اتسعت الكلمة بعده حتى عاشت في ضمائر أجيال لم تره.

إن الإيمان بالأعلى لا يربي النفس على احتقار الدنيا، بل على وضعها في مرتبتها؛ فهي ميدان العمل وليست غاية الوجود، ودار التكليف وليست مستقر الجزاء، وأمانة في اليد لا معبود في القلب. وإذا ارتفع الله في ميزان الإنسان إلى المقام الذي يليق بجلاله، انخفضت تلقائياً قيمة ما ينافس أمره في النفس؛ فلا تعود شهوة عابرة قادرة على شراء الضمير، ولا مصلحة قريبة كافية لإسكات الحق، ولا ثناء الناس جديراً بأن يخسر المرء من أجله صدقه مع الله. إن القلب لا يتسع لعلوين مطلقين: إما أن يكون الله هو الأعلى فيه، وإما أن تتوزع علواته بين المال والجاه والخوف والهوى، فيظل صاحبه ينتقل من عبودية إلى أخرى وهو يظن نفسه حراً.

الخلق الذي ينفي العبث

بعد الأمر بالتسبيح تأتي الأدلة الكونية التي تملأ هذا التسبيح معرفةً وبصيرة: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى﴾. فالقرآن لا يطلب من الإنسان تعظيماً منفصلاً عن النظر، بل يدعو إلى أن يرى آثار الكمال الإلهي في العالم الذي يعيش فيه، وفي الجسد الذي يحمله، وفي النظام الذي يحيط به. والخلق إخراج من العدم إلى الوجود، وهو الحقيقة الأولى التي تقطع وهم الاستقلال من جذوره؛ فالإنسان لم يستدع نفسه إلى الحياة، ولم يختار زمانه ولا مكانه ولا والديه ولا ملامح بدايته، وإنما وجد نفسه في الوجود بعد أن

لم يكن شيئاً مذكوراً، فكان أصل وجوده منحةً قبل أن يكون إنجازاً، وكانت قدرته على الإنجاز نفسها بعض ما مُنح.

غير أن الآية لا تقف عند الخلق، بل تصل به التسوية: ﴿خَلَقَ فَسَوَّى﴾؛ لأن الإيجاد يكشف القدرة، أما التسوية فتظهر الحكمة والإتيان والتناسب. لقد خُلق كل شيء على الهيئة التي تلائم وظيفته وموقعه في نظام الوجود، فلا تأتي الأعضاء مبعثرة بلا علاقة، ولا القوى موزعةً من غير تقدير، ولا الكائنات منفصلةً عن البيئات التي تحفظ حياتها. وفي جسد الإنسان وحده من التناسب ما يكفي لإيقاظ عمرٍ كامل من الدهشة: عينٌ تلتقط الضوء، وأذنٌ تترجم اهتزازَه، وقلبٌ يواصل عمله من غير أمرٍ وإع من صاحبه، وذائِرةٌ تحفظ ما غاب، وجهازٌ عصبي ينقل الإشارات في صمت، ومناعةٌ تفرّق — بإذن الله — بين ما ينتمي إلى الجسد وما يهدده. وليس المقصود أن يتحول النص إلى قائمةٍ من العجائب، بل أن يستيقظ العقل إلى الحقيقة الكبرى وراءها: أن هذا الاتساق ليس فوضى، وأن الكائن الذي يحمل في كل خليةٍ أثر التسوية لا يليق به أن يعيش بلا ميزان أو غاية.

والتسوية في الإنسان لا تقتصر على بنائه الجسدي، بل تشمل ما أودع الله فيه من قوى الإدراك والإرادة والاستعداد للتعلم والتمييز؛ فقد خُلق

قادرًا على أن يتجاوز الاستجابة الغريزية المباشرة، وأن يسأل عن المعنى، وأن يراجع فعله، وأن يؤخر لذّة حاضرة من أجل قيمةٍ أعلى. وهذه القدرة نفسها هي موضع كرامته وامتنانه؛ فالحيوان تقوده هدايته الغريزية إلى ما يصلح بقاءه، أما الإنسان فقد مُنح فوق ذلك وحيًا وعقلًا وإرادة، ليكون صعوده إلى الحق اختيارًا أخلاقيًا لا حركةً آليّة. ومن هنا تصبح الخيانة الكبرى لطبيعة الإنسان أن يستخدم ما سواه الله به في هدم نفسه: أن يجعل العقل خادماً للشهوة، واللغة غطاءً للكذب، والحرية طريقًا إلى الاستعباد، والقوة أداةً لإفساد ما خلق ليُعمّره.

من تسوية الكون إلى تسوية النفس

إن الذي سوى الخلق يجب من الإنسان أن يسعى إلى تسوية اختلاله الباطني؛ فكما أن الجسد لا يستقيم إذا طغى عضوٌ على وظائف سائر الأعضاء، لا تستقيم النفس إذا طغت فيها شهوةٌ حتى أخرست العقل، أو تضخم خوفٌ حتى صادر الإرادة، أو استبدّ غضبٌ حتى أحرقت العدل. والتركية التي ستأتي لاحقًا في السورة ليست إلا استجابةً إنسانيةً لهذا النسق الرباني؛ فالله سوى الخلق، وكلف الإنسان أن يصون هذا التوازن في أخلاقه واختياراته، وألا يرضى بأن يعيش ممزقًا بين معرفةٍ لا يعمل بها،

وعبادةٍ لا تهذب سلوكه، ومبادئ يرفعها في العن ثم يهدمها حين تمس مصالحه.

وحين تضطرب النفس، فإن أول ما تحتاجه ليس مزيداً من التبرير، بل العودة إلى مركز التسوية: أن يُعطى كل شيء قدره، فلا تتحول الحاجة إلى طمع، ولا الكرامة إلى كبر، ولا الحذر إلى جبن، ولا الشجاعة إلى تهور، ولا المحبة إلى استعباد، ولا الزهد إلى تعطيل. إن الانحرافات كثيراً ما تكون فضائل فقدت ميزانها؛ فالحب إذا خرج عن التسوية صار تعلقاً يذيب الشخصية، والقوة إذا خرجت عنها صارت بطشاً، والتواضع إذا انفصل عن الكرامة صار مهانة، والغيرة إذا فارقت العدل صارت ظلماً. ومن تدبر ﴿فَسَوِّ﴾ أدرك أن الجمال الأخلاقي ليس في إلغاء قوى النفس، بل في ترتيبها تحت سلطان الإيمان، حتى يعمل كل دافع في موضعه، ولا يحتل جزءاً محدود عرش الإنسان كله.

التقدير: لكل شيء حدٌ وميعاد

ثم تنتقل السورة من الخلق وهيئته إلى مساره ووظيفته: ﴿وَالَّذِي قَدَرَ فَهَدَى﴾. والتقدير يتضمن وضع المقادير والخصائص والحدود والآجال، وإجراء الخلق وفق علمٍ سابقٍ وحكمةٍ شاملةٍ؛ فما من شيء إلا وله قدر لا يتجاوزه إلا بما شاء الله، وزمن يبدأ فيه وينتهي، وقابليةٌ تناسب دوره،

وعلاقاتٌ تصل وجوده بما حوله. وليست المقادير قيوداً عمياء مفروضة على كونٍ بلا معنى، بل هي هندسة الحكمة التي تمنع الوجود من الانهيار في الفوضى؛ فلهماء خصائصه، وللنار خصائصها، وللنبات مواسمه، وللأجساد مراحلها، وللحياة أجلها، ولكل نعمة حدٌ لو جاوزته انقلبت ضد وظيفتها.

والإنسان بطبيعته يحب الاتساع، لكنه لا ينتبه دائماً إلى أن كثيراً من الراحة يسكن الحدود؛ فلو لم يكن للنوم وقتٌ يسترد فيه الجسد عافيته لأهلكه السهر، ولو لم يكن للجوع حدٌ يدفع إلى الطعام لتعطل البقاء، ولو لم يكن للشبع حدٌ ينبه إلى الكفاية لأهلك الأكل صاحبه. وحتى الزمن الذي يشكو الإنسان ضيقه هو الذي يمنح الأشياء قيمتها؛ فلأن اللحظة لا تدوم تصبح جديرةً بأن تُحسَن، ولأن العمر محدود يصبح الاختيار مسؤولية، ولأن الفرص تفوت يكتسب القرار معناه. إن الوجود الذي لا نهاية فيه للفرصة لا يصنع إنساناً جاداً، أما الأجل فإنه يجعل لكل لحظة وزناً، ويحول الحياة من امتدادٍ سائب إلى أمانةٍ محسوبة.

غير أن الإيمان بالتقدير قد يُساء فهمه إذا تحول إلى ذريعة للكسل أو الاستسلام؛ فالذي قدّر هو نفسه الذي هدى، وهدايته تشمل دلالة المخلوقات على سبلها، وتشمل ما أقامه الله في الكون من أسباب، وما وهب للإنسان من عقل، وما أنزله من وحي. لذلك لا يعني التسليم بالقدر أن يهجر

المرء الفعل، بل أن يفعل من غير ادعاء السيادة المطلقة على النتائج؛ يزرع لأنه مأمور بالأخذ بالسبب، لكنه يعلم أن الإنبات ليس في يده، ويخطط لأن العقل من هداية الله، لكنه لا يؤلّه خطته، ويقاوم الشر لأنه مكلف، لكنه لا ينهار إن تأخر النصر، ويطلب الشفاء، لكنه يعرف أن الدواء سبب وأن الشافي هو الله. وهكذا يجمع الإيمان بين أقصى الجهد وأعمق التوكل، فلا يصنع إنساناً عاجزاً، ولا يتركه فريسةً لوهم التحكم الكامل.

الهداية المودعة في الوجود

قوله تعالى: ﴿فَهْدَى﴾ يفتح أمام النظر عالماً هائلاً من الهدايات الصامته التي تسري في الخلق؛ فال مخلوقات تؤدي وظائفها بما أودع الله فيها من خصائص وغرائز واستعدادات، وتسلك إلى أرزاقها وطرائق بقائها من غير أن تكون قد درست خرائط الوجود أو صاغت قوانينه. البذرة الصغيرة تهدي في ظلمة التراب إلى أن تدفع جذورها إلى الأسفل، وساقها إلى موضع الضوء، والطارئ يهتدي في رحلاته، والرضيع يهتدي إلى غذائه، والخلية تؤدي وظيفتها داخل بناءٍ أكبر لا تعيه. وما نسميه قانوناً أو غريزةً أو خاصية لا يفسر نفسه بنفسه، بل يصف لنا الكيفية التي تجري بها الهداية في الخلق، ويبقى السؤال عن أصل هذا الانتظام قائماً حتى يجب عنه الوحي: ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهْدَى﴾.

وإذا كانت الموجودات الأدنى قد مُنحت من الهداية ما يبلغ بها مصالحها، فإن هداية الإنسان أوسع وأثقل؛ لأنه لا يحتاج إلى ما يحفظ جسده فقط، بل إلى ما يحفظ إنسانيته من الانهيار. قد يعرف الإنسان كيف يبني بيتاً ولا يعرف كيف يبني أسرة، وقد يتقن إطالة العمر ولا يعرف لماذا يعيش، وقد يصل إلى الكواكب البعيدة ويضل الطريق إلى قلبه، وقد يضاعف قدرته على الاتصال بينما يعجز عن إقامة تواصل صادق مع أقرب الناس إليه. إن المعرفة بالأشياء لا تغني عن الهداية إلى الغايات، والتقدم في الوسائل لا يضمن سلامة الوجهة؛ فقد يحمل القطار أقوى محرك وأدق أجهزة الملاحة، ثم تكون الكارثة كلها في أنه يسير سريعاً إلى المكان الخطأ.

من هنا كانت حاجة الإنسان إلى الوحي ليست نقصاً في العقل، بل نتيجة لطبيعة مهمته؛ فالعقل يستطيع أن يكتشف كثيراً من علاقات العالم، لكنه لا يستقل بمعرفة تفاصيل مراد الله، ولا يرى وحده ما وراء الموت، ولا يملك أن يحوّل الرغبات المتعارضة إلى ميزان أخلاقي ثابت لا تحرفه المصالح. والوحي لا يأتي ليطفئ العقل، بل ليهديه إلى مجاله، ويمنحه الأفق الذي يربط الجزئي بالكلي، والعاجل بالآجل، والفعل بنتيجته الممتدة إلى الآخرة. ولذلك فإن قوله: ﴿قَدَّرَ فَهَدَى﴾ يمهّد لما سيأتي من وعد الإقراء

والتيسير، فالقرآن هو ذروة الهداية التي اختص الله بها الإنسان حتى لا يبقى عقله، على عظمته، وحيداً أمام أسئلة الوجود الكبرى.

التقدير والهداية في سيرة الإنسان

في حياة كل إنسان مساحة لا يختارها، ومساحة يُمتحن بما يختاره فيها؛ فلا أحد يختار لحظة ميلاده، ولا البيئة الأولى التي يفتح فيها عينيه، ولا كثيراً من الأحداث التي تطرق بابه، لكنه يختار — في حدود استطاعته — ماذا يصنع بما وقع له، وكيف يقرأه، وإلى أي وجهة يحوله. قد يتشابه الألم بين شخصين، ثم يكون لأحدهما باباً إلى النضج، وللآخر ذريعة إلى القسوة؛ لا لأن الجرح مختلف، بل لأن الاستجابة اختلفت. وهنا تلتقي الهداية بالتكليف: ليس الإنسان مسؤولاً عن كل ما نزل به، لكنه مسؤول عن ألا يجعل ما نزل به إلماً يقرر بقية حياته، وعن ألا يمنح الماضي سلطةً مطلقةً على مستقبله.

والإيمان بأن الله ﴿قَدَّرَ فَهَدَى﴾ يحور النفس من سؤالٍ مرهق: لماذا لم أخلق في ظروف غير ظروفِي، أو أُنمَّح بدايةً تشبه بدايات الآخرين؟ فليس المطلوب من الإنسان أن يعيش نسخةً من سيرة غيره، بل أن يهتدي إلى واجبه داخل القدر الذي وُضع فيه. وقد يكون في بعض النقص الذي يشكوه المرء باب تفرد، وفي بعض الحرمان الذي آلمه سر يقظته، وفي

الطريق الشاق الذي لم يختره مادة رسالته التي لم يكن ليبلغها من طريقٍ وثير. وهذا لا يجعل الألم محبوباً لذاته، ولا يمنع السعي إلى تغيير الظلم والواقع، لكنه يمنع الجرح من أن يصبح عدماً محضاً؛ إذ يستطيع المؤمن أن يستخرج من قسوة التجربة معنى، ومن الخسارة بصيرة، ومن الانكسار معرفةً بربه وبنفسه لم تكن تمنحها أيام الرخاء.

المرعى: مشهد الحياة في اخضرارها

بعد هذه المعاني الكلية، تقلنا السورة إلى مشهدٍ أرضي قريب: ﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى﴾. إن التعبير يجعل العين كأنها تشاهد الأرض بعد نموها وقد تشققت عن نباتٍ أخضر، خرج من باطنٍ لا يوحي ظاهره بشيء، فإذا الحياة تتدفق من التراب، وتلبس الأرض ثوباً من الخضرة. والمرعى ليس مجرد نبات، بل علامة على منظومة كاملة من العطاء: ماءٌ ينزل، وأرضٌ تتلقى، وبذرةٌ تستجيب، وضوءٌ يمدّها بالطاقة بإذن الله، ثم رزقٌ ينتفع به الحيوان والإنسان. إن لقمةً واحدة قد تصل إلى يدك بعد أن تعاونت في تكوينها عناصر لا تستطيع إحصاءها، وبعد أن مرت بمراحل لم تشهدا، فتصبح النعمة اليومية التي ألفتها رسالةً كونية لو استيقظ القلب لقراءتها.

واختيار المرعى هنا يضع الإنسان أمام الجمال النافع؛ فهو زينةٌ ورزق، مشهدٌ يبهج العين ومادةٌ تحفظ الحياة. وفي ذلك تذكير بأن الإسلام لا ينظر

إلى جمال الأرض بوصفه شراً في ذاته، ولا يطلب من القلب أن يعى عن الخضرة، بل يطلب منه ألا يتوقف عندها. فالمشكلة ليست في أن يرى الإنسان المرعى جميلاً، وإنما في أن يظنه باقياً، وليست في أن ينتفع بالدنيا، بل في أن يتحول الانتفاع إلى افتتان، وأن تتحول النعمة إلى حجاب، وأن ينسى المرء المنعم لأن يريق العطية استولى على بصره. إن العين المؤمنة ترى جمال الشيء وترى معه هشاشته، تستمتع به من غير أن تبني خلودها عليه، وتشكر الله عليه من غير أن تمنحه حق السيطرة على القلب.

لقد أخرج الله المرعى، فلا ينبغي للناظر أن ينسب الخضرة إلى ذاتها، أو يرى الرزق مقطوعاً عن مصدره؛ فالأسباب لا تلغى، لكنها لا تستقل. الفلاح يحرق، والبذرة تنبت، والمطر يسقي، غير أن القدرة التي أودعت في البذرة سر التفتح، وقدرت للماء خصائصه، وربطت بين السبب والمسبب، هي قدرة الله. وحين يغيب هذا المعنى، يتعامل الإنسان مع النعمة بوصفها حقاً ذاتياً مضموناً، فإذا فقدوها امتلاً اعتراضاً، أما حين يدرك أنها إخراجٌ وعطاء، فإنه يستقبلها بشكر، ويستعملها بأمانة، ويعلم أن دوامها ليس ديناً له على الحياة.

الغناء الأحوى: الحقيقة التي تنتظر الجمال

لكن السورة لا تترك العين مأخوذةً بالخضرة؛ ففي الآية التالية يهبط الستار على المشهد سريعاً: ﴿جَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى﴾. لقد كان مرعياً يملأ الأرض حياة، ثم صار حطاماً يابساً متغير اللون، تحمله الرياح أويتراكم بعد أن فقد نضارته ووظيفته. وبين الإخراج والجعل تختصر الآيتان دورةً كاملةً من الصعود والذبول، وتضعان أمام الإنسان قانون التحول الذي يحكم عالم المادة: ما يبدأ غصّاً يمضي إلى اليبس، وما يكتمل شبابه يتهياً للهرم، وما يلفت الأنظار في ظهوره قد يصبح بعد حين أثراً لا يلتفت إليه أحد.

و«الغناء» ما صار من النبات يابساً هشيماً، و«أحوى» يدل على اللون الضارب إلى السواد بعد الخضرة؛ وكأن السورة لا تكتفي بالإخبار عن الفناء، بل ترسمه لونا يتحول أمام العين. كان المشهد أخضر، ثم اسودَّ وانطفأ؛ وما بين اللونين سيرة الدنيا كلها. تبدأ الأشياء بوعدٍ كبير، ثم يكشف الزمن حدودها؛ تبدأ السلطة بالتصفيق وتنتهي باسمٍ في كُتاب، ويبدأ المال بأبواب يفتحها وينتهي بتركة يتنازعها آخرون، ويبدأ الجمال فتنَةً للأبصار ثم يمضي به الزمن إلى التحول، ويبدأ البيت مملوءاً بالأصوات ثم تنفرق خطى ساكنيه. ليست هذه النظرة تشاؤماً، بل واقعيةٌ تنقذ الإنسان

من أن يطلب من الفاني ما لا يملكه؛ فالتشاؤم هو أن تكون الدنيا كل شيء ثم تفنى، أما الإيمان فيرى فناءها جسراً إلى دارٍ خير وأبقى.

والغشاء ليس إدانةً للمرعى، بل كشفٌ لحقيقته الزمنية؛ لقد أدى النبات وظيفته، وكان رزقاً وجمالاً، ثم انتهت دورته. وكذلك الدنيا لا تُدم لأنها دنيا، وإنما يُدم أن تُؤثر على الآخرة، وأن تستخدم على غير مراد الله، وأن ينسى الإنسان نهايتها فيعامل مرحلتها الخضراء كأنها حقيقتها الكاملة. إن الحكيم لا ينتظر حتى يصير المرعى غثاءً ليعرف أنه كان مؤقتاً، بل يرى نهايته وهو في أوج اخضراره؛ لا ليزهد في شكره، وإنما ليحسن استعماله قبل أن يرحل، وليأخذ منه زاداً إلى ما بعده.

الإنسان بين ذاكرة البداية وغفلة النهاية

تتكون مأساة التعلق بالدنيا من أن الإنسان شديد الحساسية للبدايات ضعيف التذكر للنهايات؛ يفتنه ظهور الشيء أكثر مما يعظه مصيره، ويقرأ الواجهة ولا يكمل القصة. يرى المنصب ساعة التمكين ولا يراه ساعة المغادرة، ويرى اللذة لحظة الاندفاع ولا يرى ما تتركه من خواء، ويرى الكلمة حين تمنحه انتصاراً عاجلاً ولا يرى الجرح الذي ستستقر به في قلب غيره، ويرى المال حين يدخل يده ولا يرى السؤال الذي ينتظره عن مصدره ومصرفه. ومن هنا يأتي القرآن ليمنح الإنسان «ذاكرة النهاية»؛ وهي

القدرة على أن يستحضر مآل الشيء قبل أن يختاره، وأن يدخل الآخرة في حساب اللحظة، فلا يكون أسيراً لما يراه الآن.

إن قوله تعالى: ﴿فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى﴾ يري في النفس هذا البصر الممتد؛ فليس العاقل من يعرف شكل الفعل لحظة وقوعه فقط، وإنما من يرى الثمرة كامنة في البذرة، والنهاية محتبئة في البداية. قد تكون المعصية خضراء في عين الشهوة، لكنها تحمل غثاءها في داخلها؛ وقد تبدو الطاعة شاقة في أولها، لكنها تحمل سكينتها وثمرتها في باطنها. والفرق بين البصيرة والغفلة أن الغافل يحكم على الطريق من خطوته الأولى، أما البصير فيحكم عليه من وجهته الأخيرة.

دورة المرعى بوصفها مرآة للنفس

كما يخرج المرعى أخضر ثم يذبل، تمر النفس نفسها بمواسم من الإقبال والفتور، والقوة والضعف، والصفاء والتكدر. وقد يظن المرء أن إشراقاً روحيةً عابرة تكفي لضمان استقامته، لكنه يكتشف أن القلب إذا لم يُسَقَّ بالذكر عاد إليه الجفاف، وأن المعاني إذا لم تتحول إلى أعمال أكلتها العادة. فالإيمان ليس انفعالاً مؤقتاً، بل رعايةً مستمرة؛ والنفس أرض، وما يلتقى فيها من القرآن بذور، وما ينزل عليها من الذكر ماء، وما يحفظ ثمرها من

المجاهدة سياج. فإذا انقطع عنها مورد الهداية، لم تبق خضرتها لمجرد أنها كانت خضراء يوماً.

وفي هذا المعنى إنذارٌ لأصحاب البدايات المضيئة الذين يظنون أن ماضيهم الصالح يعفيهم من رعاية حاضرهم؛ فقد يبدأ الإنسان مخلّصاً ثم يتسلل إلى عمله طلب الثناء، ويبدأ متواضعاً ثم تصنع الشهرة في قلبه عرشاً خفياً، ويبدأ صاحب قضية ثم يتحول مع الزمن إلى صاحب مصلحة يتغذى على اسم القضية. إن المرعى لا يحتفظ بخضرته لأنه خرج جميلاً، بل يحتاج إلى أسباب بقاءه، والقلب كذلك لا يثبت على حالٍ بغير افتقار دائم إلى الله، ومحاسبة للنفس، وتجديد للنية، واستجابة للتذكير.

ومع ذلك لا ينبغي أن تُقرأ صورة التحول بوصفها دعوةً إلى اليأس من تقلب النفس؛ فالذي أخرج المرعى أول مرة قادراً على أن يعيد الحياة إلى الأرض بعد موتها، والذي هدى القلب في بدايته قادراً على أن يرده بعد شروده. غير أن الرجاء الصادق لا يعني ترك الأرض لليباس، بل العودة إلى أسباب الحياة، وإزالة ما يحجب الماء عن الجذور. وكم من قلبٍ غطته قسوة السنين، ثم مسته آيةٌ واحدةٌ بصدق فأخرجت من أعماقه اخضراراً ظن صاحبه أنه مات إلى غير رجعة.

الموت بوصفه كاشفاً للقيمة

إن ذكر التحول من المرعى إلى الغشاء لا يراد به أن يطارد الموت الإنسان ليشل حركته، بل ليصحح قيمة حركته. فالذي ينسى الموت قد يملاً أيامه بأشياء لا تستحق عمره، أما الذي يتذكره تذكراً إيمانياً فإنه يزداد حرصاً على أن تكون حياته حياةً حقاً. الموت لا يقول له: لا تعمل، بل يقول: اختر العمل الذي لا يموت أثره؛ ولا يقول: لا تحب، بل أحب بما يرضي الله حتى يتحول الحب من تعلقٍ فإنَّ إلى قرينة باقية؛ ولا يقول: لا تبني في الأرض، بل ابن من غير أن تدفن روحك في البناء؛ ولا يقول: لا تفرح بالمرعى، بل لا تنسَ وأنت تراه أخضر أن تشكر من أخرجه، وأن تستخدمه فيما يبقى لك حين يصبح غثاء.

وحين يحضر المال في الوعي تتحول الأولويات: تصبح الكلمة الطيبة استثماراً أبقى من انتصارٍ عابر، ويصبح إصلاح قلبٍ أعظم من جمع تصفيق جمهور، ويصبح العدل عند القدرة أثنى من لذة الانتقام، ويصبح العمل الذي لا يعرفه الناس لكنه خالص لله أعظم في ميزان العاقل من صورة براقة تخفي وراءها خواء. إن الدنيا تعلم الإنسان أن يقيس الأشياء بحجم حضورها، أما الآخرة فتعلمه أن يقيسها بطول بقائها، وشتان بين شيء يملاً

العين ساعة ثم يزول، وشيء قد يبدو صغيراً في الأرض لكنه يمتد نوراً في الأبد.

هندسة الآيات الخمس

إذا تأملنا حركة هذه الآيات وجدناها تبني الوعي في تدرجٍ بالغ الإحكام: تبدأ بالله الأعلى حتى يستقر المرجع، ثم تنتقل إلى الخلق والتسوية حتى يظهر الإتقان، ثم إلى التقدير والهداية حتى نتضح الحكمة والوجهة، ثم إلى المرعى حتى تُرى النعمة في ازدهارها، ثم إلى الغناء حتى تتكشف حدودها ونهايتها. إنه انتقال من الأعلى الذي لا يزول إلى الأدنى الذي يتغير، ومن كمال الخالق إلى تقلب المخلوق، ليعرف الإنسان أين يضع ثقته، وما الذي يتخذه غاية، وأي شيء يستحق أن يمنحه قلبه.

وفي هذا البناء تهيئةٌ نفسية لما سيأتي من السورة؛ فمن عرف أن الله خلق وسوى وقدر وهدى، لن يستغرب أن ينزل وحياً يهدي الإنسان إلى رشده، ولن يظن أن حفظ القرآن وتيسير تبليغه خارجان عن القدرة التي أقامت هذا الوجود. ومن رأى المرعى يصير غناءً، صار أكثر استعداداً لفهم المفاضلة الختامية بين الدنيا والآخرة، وأدرك لماذا كان إشار الحياة الدنيا خطأً في ترتيب المراتب لا مجرد زلة سلوكية عابرة. وهكذا تزرع الآيات

الأولى في القلب أصلين سيحكان بقية السورة: الثقة بالرب الذي لا يعجزه شيء، والزهد الواعي في عالم لا يثبت على حال.

من التسبيح اللفظي إلى الحياة المسيحية

لا يكتمل أثر الأمر الأول حتى تتحول حياة الإنسان كلها إلى شاهدٍ على تسبيحه؛ فليس من التسبيح أن يقول اللسان: «سبحان الله» ثم ينسب القلب إلى الله ما لا يليق بحكمته، وليس من التسبيح أن يعظم العبد ربّه في الصلاة ثم يعظم أمر المخلوق فوق أمره خارجها، وليس من التسبيح أن يرى الإلتقان في الكون ثم يرضى بالفوضى في أخلاقه، أو يقرأ ﴿نَسُو﴾ ثم يترك شهوته تهدم توازن نفسه، أو يقرأ ﴿فَهْدَى﴾ ثم يعرض عن الهدى كلها خالف هواه.

التسبيح الصادق أن تنزه الله بقلبك كما تنزهه بلسانك، فتشق بوعده حين تتأخر الشواهد، وتعذل لأنك تعلم أن حكمه أعلى من مصلحتك، وتصبر لأنك لا تتهم حكمته، وتشكر لأنك ترى يده في إخراج المرعى، وتزهد لأنك ترى الغناء كامناً وراء الخضرة. وحينئذ لا يعود التسبيح كلمةً منفصلةً عن العالم، بل يصبح طريقةً لفهمه؛ فكل تسوية تذكرك بالحكيم، وكل هداية تدلك على الهادي، وكل اخضرار يوقظ الشكر، وكل ذبول يوقظ الاستعداد.

هكذا تنتهي الحركة الأولى من السورة وقد وضعت الإنسان أمام حقيقتين متقابلتين: ربُّ أعلى لا يلحق كماله زوال، وعالمٌ أخضر لا تنفك عنه إمكانات الذبول. وبين الحقيقتين يتحدد مصير القلب؛ فمن تعلق بالأعلى ارتفع وإن قلَّ ما في يده، ومن تعلق بالمرعى هبط معه حين يصير غشاءً، ومن عرف أن الخالق قدّر فهدى، أقبل على هدايته مطمئنًا إلى أن الطريق الذي جاء من عنده لا يضيّع سالكه.

ولأن البشرية لا يكفيا أن ترى الهداية مبثوثةً في الكون، بل تحتاج إلى كلمة الوحي التي تكشف لها وجهتها الأخلاقية ومصيرها الأبدي، تنتقل السورة بعد هذا التأسيس الكوني إلى المعجزة التي ستستقر في صدر الرسول صلى الله عليه وسلم، وإلى الوعد الرباني الذي يبدد قلق النسيان، ويفتح طريق التيسير، ويضع التذكير في موضعه من النفوس:

﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى﴾.

الفصل الثاني

المعجزة البَيَانِيَّة والعهد الربَّانِيَّة

الآيات من السادسة إلى التاسعة

قال الله تعالى:

﴿سَنَقْرَأُكَ فَلَا تَنسَى ۖ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى ۚ
وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى ۖ فَذَكِّرْ ۚ إِنَّ نَفْعَ الذِّكْرِ ۙ﴾

من هداية الكون إلى هداية الوحي

بعد أن أقامت الآيات الأولى أمام القلب مشهد الخلق والتسوية والتقدير والهداية، تنتقل السورة من الكتاب الكوني المفتوح إلى الكتاب المنزل المقروء، ومن الهداية المدعوة في الغريزة والخصائص إلى الهداية النازلة كلماتٍ تحمل للإنسان معنى وجوده وميزان طريقه. وليس هذا الانتقال مفاجئاً، بل هو ثمرة منطقية لما سبقه؛ فالذي خلق الكائنات على صورها، وسوّى وظائفها، وقدر لها مقاديرها، وهداها إلى مصالحها، لا يترك الإنسان — وهو حامل الأمانة وصاحب الإرادة الأخلاقية — بلا وحي يفرق له بين الهدى والهو، ولا يدعه يتخبط في أسئلته الكبرى مستنداً إلى عقلٍ

جليل القدر لكنه محدود المجال، تحاصره الشهوة، ويؤثر فيه الخوف، وتبدل أحكامه المصالح والبيئات.

إن العقل يستطيع أن يكتشف كيف تعمل أشياء كثيرة، لكنه لا يستطيع وحده أن يخبر الإنسان لماذا وُجد، وما مراد خالقه منه، وما حقيقة الحياة بعد الموت، وبأي ميزان نهائي توزن الأعمال حين تتعارض المصالح وتختلف الثقافات. ولذلك كانت النبوة امتداداً لهداية ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾؛ فكما أن الله لم يترك العين بلا ضوء، ولا الرئة بلا هواء، ولا البذرة بلا قابلية للإنبات، لم يترك الروح الإنسانية بلا ذكرٍ يوقظها، ولا العقل بلا نورٍ يهديه فيما لا يستقل بإدراكه. الوحي ليس عنصراً زائداً على بناء الإنسان، بل هو الغذاء الذي يلائم أعماق ما فيه، والجواب الذي ينزل على الأسئلة التي لا تكف عن مطاردته مهما أغرق نفسه في ضجيج اليومي والعاور.

ومن هنا تأتي الآية السادسة وعداً عظيماً في موضع التهيئة بعد الأمر بالتسبيح: ﴿سَنَقْرَأُكَ فَلَا تَنْسَى﴾. فالذي أمر نبيّه صلى الله عليه وسلم أن يسبح اسم ربه الأعلى، لم يتركه وحيداً أمام ثقل الرسالة، ولم يجعل حفظ الوحي معلّقاً بمجرد الطاقة البشرية، بل تكفل بإقرائه وثبितه، فصار الحفظ معونةً ربانية قبل أن يكون جهداً بشرياً، وصارت الرسالة محمولةً بعناية من

أنزلها. وما أعظم الفرق بين من يحمل كلاماً من عند نفسه، فيظل قلقاً على بقائه ومعناه، وبين من يحمل وحياً تكفل الله بإقرائه وحفظه وتيسير أمره.

السين التي تفتح أفق الطمأنينة

في قوله تعالى: ﴿سَنُقَرِّئُكَ﴾ وعدُّ يتجه إلى المستقبل، ولكنه يُلقى بصيغة الثقة التي تجعل الآتي كأنه قد استقر في موضعه؛ فالسين لا تحمل هنا مجرد تأخيرٍ زمني، بل تحمل معنى الرعاية المتجددة: سنقرئك كلما نزل من هذا الوحي شيء، وستولى تثبيتته في صدرك، فلا يكون نزول القرآن حادثةً عابرةً تواجهها وحدك، وإنما صلةً مستمرةً بين السماء والقلب المختار لحمل الرسالة. وفي ذلك تعليم لكل صاحب تكليف أن الله حين يضع على كتفه أمانةً صادقة لا يتركه بغير مدد، وأن التكاليف الربانية لا تأتي منفصلةً عن أسباب العون عليها، وإن كان العون لا يظهر دائماً قبل الخطوة، بل كثيراً ما ينكشف في أثناء السير.

لقد كان النبي صلى الله عليه وسلم شديد الحرص على القرآن، يتلقى كلام ربه بقلبٍ كامل الحضور، ويخشى أن يفوته شيءٌ منه، فجاء الوعد ليحرره من القلق الذي قد يشغله عن كمال التلقي: ﴿سَنُقَرِّئُكَ فَلَا تَنسَى﴾. وكأن العناية الإلهية تقول له: هذا الكلام كلامنا، وهذه الرسالة رسالتنا، وأنت رسولنا، فلا تحمل همَّ الحفظ كما لو كنت قائماً به وحدك، بل ألق

قلبك إلى الوحي مطمئناً إلى أن الذي اختارك سيعينك. إن الطمأنينة هنا لا تُضعف المسؤولية، بل تحررها من الاضطراب؛ فالخوف المفرط قد يبدد الطاقة، أما الثقة بالله فتجمعها، وتجعل الإنسان يؤدي واجبه بقلب حاضر بدل أن يستهلكه القلق على ما ليس في يده.

وهذه سنة تتكرر في حياة المؤمن: يظن أحياناً أن نجاحه في أداء مهمته قائم على إحكام قبضته على كل شيء، فيرهقه وهم السيطرة، ويحسب كل تفصيل خارج حسابه تهديداً للمسار كله، حتى ينسى أن الإنسان مأمورٌ ببذل الوسع لا بامتلاك النتائج. إن الوعد النبوي في الآية مخصوصٌ بمقام الإقراء وحفظ الوحي، ولا يجوز تسويته بتجارب الناس، لكن النور التربوي الممتد منه يعلمنا أن الاعتماد على الله لا يأتي بعد استنفاد الأسباب وحده، بل يصاحب الأخذ بها من بدايته؛ فتعمل الذاكرة، ويجهد العقل، وتُحكم الوسائل، بينما يظل القلب متبرئاً من حوله وقوته، عالماً أن التوفيق عطيةٌ لا ينتجها السبب استقلالاً.

الإقراء الذي يصنع أمةً قارئة

الإقراء في الآية ليس نقل ألفاظٍ إلى الذاكرة فحسب، بل تأسيس لحضور الوحي في العالم؛ فن قلب الرسول صلى الله عليه وسلم ستخرج الآيات إلى الأسماع، ومن تلاوته ستلتقاها الصدور، ومن بيانه ستتشكل أمةٌ

لا يكون الكتاب عندها أثراً محفوظاً في خزائن التاريخ، بل صوتاً حياً يعيد صناعة الإنسان. وقد سمي الله القرآن «ذكرًا»، لأن وظيفته ليست أن يملأ الفراغ الثقافي بمعلومات جديدة فقط، وإنما أن يعيد الوعي إلى الحقيقة التي نسيها تحت ضغط العادة، ويسترد الإنسان من تشتته في الجزئيات إلى مركزه الأكبر: أنه عبدٌ لله، وأن حياته أمانة، وأن طريقه ينتهي إلى لقاء، وأن أفعاله مهما خفيت لا تسقط من العلم الإلهي.

والمعجزة القرآنية لا تنحصر في بقاء ألفاظه محفوظةً عبر الأجيال، على عظمة ذلك، بل تتجلى كذلك في قدرته على أن يبقى جديد التأثير كلما استقبله قلبٌ جديد بصدق. تتكرر الآية على الألسنة منذ قرون، ثم تقع في نفس إنسانٍ كأنها نزلت لتوها على جرحه، أو لتجيب عن سؤال ظل يطوف في أعماقه من غير اسم؛ وهذا ليس لأن النص يتبدل، بل لأن طاقته الدلالية أوسع من أن تستنفدها قراءة واحدة، ولأن النفس البشرية تتغير أحوالها، فتفتح لها الآية في كل حال باباً يناسب موضعها من الطريق. قد يقرأ الإنسان قوله تعالى: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ في زمن قوةٍ فترده عن الغرور، ثم يقرؤه في زمن ضعفٍ فيحرره من الخوف، والآية هي الآية، لكن المرض يختلف، فجاء الدواء الواحد بآثار متعددة.

ولأن القرآن رسالةٌ للحياة لا قطعةً من الماضي، كان حفظه حفظاً للمقياس الذي يستطيع الإنسان أن يراجع به انحرافاته كلما تغيرت أشكالها. قد تبدل أسماء الشهوات، وتطور أدوات الطغيان، وتلبس العبودية أثواباً براقة، لكن القرآن يبقى قادراً على كشف الجوهر تحت اختلاف المظاهر؛ فالوثن قد لا يكون حجراً، لكنه يظل وثناً حين يمنحه القلب طاعةً مطلقة، والجاهلية قد تستخدم أحدث الآلات، لكنها تظل جاهلية حين تجعل الهوى مصدر القيم، والخسران قد يأتي في صورة نجاح اجتماعي صاخب، لكنه يظل خسراناً حين يفقد الإنسان نفسه وهو يجمع ما سيفارقه.

«فلا تنسى»: العناية بالرسالة وحاملها

إن النسيان من خصائص البشر، وقد جاءت البشارة هنا للنبي صلى الله عليه وسلم بأن الله سيقرّئه فلا ينسى ما أقرّاه إياه، على الوجه الذي تتحقق به أمانة البلاغ وحفظ الرسالة. وفي هذا التكفل الرباني بيان أن النبوة ليست عبقرية بشرية اخترعت نصّاً ثم نسبته إلى السماء، وإنما اصطفاً وتلقّ وأمانة؛ فالرسول لا ينشئ القرآن من داخله، بل يتلقاه من ربه، ولا يملك أن يزيد فيه أو ينقص، بل يبلغ ما أنزل إليه. ومن هنا تأتي المعجزة في توافق ثقل الوحي مع سلامة التبليغ: كلماتٌ نزلت في ظروف متتابعة، عبر سنوات امتلأت بالحرب والسلم، والهجرة والفقد، وبناء الجماعة ومواجهة الخصوم، ثم

ظلت محفوظة النسق والمعنى، لا تشتتها الأحداث ولا تستهلكها اللحظة التي نزلت فيها.

ولا يحمل قوله تعالى: ﴿فَلَا تَنْسَى﴾ مجرد خبر عن الذاكرة، بل يحمل سكونية إلى القلب النبوي؛ إذ يرفع عنه رهبة ضياع شيء من الوحي بسبب الطبيعة البشرية، ويجعله متلقياً عن الله مستنداً إلى حفظه. فحامل الرسالة يحتاج إلى يقينٍ يحميه من قلقين: قلق على النص أن يضيع، وقلق على الطريق أن يتعسر؛ فجاءت الآيات تبشره بكلا الأمرين: ﴿سَنُقَرِّكَ فَلَا تَنْسَى﴾ حفظاً لما يتلقى، ثم ﴿وَنُبَشِّرُكَ لِلْيُسْرَى﴾ تهيئةً لأداء ما كُلِّفَ به. وهكذا تحيط العناية بالرسالة من داخل الصدر إلى خارج الحركة؛ تحفظ الكلمة، ثم تيسر حاملها للطريق الذي يحولها واقعاً.

استثناء المشيئة وحراسة التوحيد

ثم يأتي الاستثناء: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾، ليبقى الوعد نفسه مربوطاً بالمشيئة الإلهية، فلا يتحول ما وُهب للنبي صلى الله عليه وسلم إلى صفةٍ ذاتيةٍ مستقلة عن الله. إن الله هو الذي يحفظ، وهو القادر أن يشاء غير ذلك، فلا يخرج شيء — حتى في مقام الوعد بالثبات — عن سلطان مشيئته. وقد ذكر أهل التفسير في هذا الاستثناء وجوهاً، منها أنه استثناء لإظهار نفاذ المشيئة وتأكيد أن عدم النسيان عطية من الله لا استقلال فيها للمخلوق،

ومنها ما يتصل بما شاء الله أن ينسى رفعاً لتلاوته أو نسخاً لحكمته التشريعية، والمقصد الجامع أن الوحي كله، حفظاً ورفعاً وإبقاءً ونسخاً، واقعٌ بعلم الله ومشيتته، لا بطبيعة ذاتيةٍ في الذاكرة البشرية.

وهذا الاستثناء القصير يقيم في الوعي أصلاً عظيماً من أصول التوحيد: أن الوعود الربانية لا تعني خروج الأسباب عن المشيئة، وأن ما ثبته الله ثابتٌ بثنيتته، لا بقوة مستقلة في الشيء. فالنار تحرق بإذن الله، والماء يروي بما أودع الله فيه، والذاكرة تحفظ بما منحها من قدرة، والدواء ينفع حين يأذن الله بنفعه؛ وليست هذه المعاني إنكاراً للسنن، بل ردُّ للسنن إلى خالقها، حتى لا تتحول في العقل إلى أرباب صامته. إن المؤمن يحترم القانون الكوني لأنه من تقدير الله، لكنه لا يعبد القانون ولا يتوهم أنه أغلق باب المشيئة، ويأخذ بالسبب لأنه مأمور، لكنه لا يركن إليه ركوناً ينسيه المسبب.

وفي الآية تربيةٌ على الأدب في الحديث عن المستقبل؛ فالإنسان يخطط ويعزم، لكنه يظل عالماً أن ما يملكه هو النية والعمل، أما تحقق المراد فتصل بمشيئة الله. وليس تعليق الأمور على المشيئة تخلصاً من المسؤولية أو عبارةً تُقال لتغطية التردد، بل وعيٌ بحدود الذات: سأفعل ما أستطيع، وأبذل وسعي، لكني لا أدعي امتلاك غدٍ لم أصل إليه، ولا أسبابٍ قد

تغير، ولا قلب قد يتقلب، ولا حياة لا أضمن استمرارها. بهذا المعنى تنقذ المشيئة الإنسان من الغرور عند النجاح ومن الانهيار عند الإخفاق؛ فإذا تحقق الأمر شكر ولم ينسب الفضل إلى ذاته وحدها، وإذا تعثر راجع أسباب تقصيره من غير أن يظن أن الكون قد خرج عن التدبير.

العلم الذي يحيط بالجهر والخفاء

ويعقب الاستثناء قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى﴾، فستقرر المشيئة على أساس العلم المحيط؛ فالله لا يشاء عن جهل، ولا يدير عن غفلة، ولا تخفى عليه حركة ظاهرة ولا معنى مستتر. يعلم الجهر الذي يخرج إلى الأسماع، ويعلم ما يخفى في أعماق النفوس قبل أن يجد لغته، ويعلم المعلن من أحوال العباد والمستور، وما يراه الناس من العمل وما تستره النيات، وما تحفظه الصدور وما يغيب عنها، وما يبقيه من الوحي وما تقتضي حكمته رفعه. وحين تجتمع المشيئة والعلم، يطمئن القلب إلى أن التدبير ليس قوة عمياء، بل إرادة الحكيم الذي أحاط بالأشياء ظاهراً وباطناً.

إن الناس لا يحكمون غالباً إلا على الجهر؛ يرون صورة الفعل ولا يرون المنبع الذي خرج منه، ويسمعون العبارة ولا يعلمون ما وراءها من صدق أو رياء، ويصفقون لإنجاز قد يكون غذاؤه حب الظهور، أو يسيئون الظن بعملٍ خفي لم يحسن صاحبه التعبير عنه. أما الله فيعلم «ما يخفى»، ولهذا

تتحول النية في ميزانه من خاطرٍ داخلي لا قيمة له إلى روح العمل التي تحدد وجهته؛ فقد يتشابه رجلان في الصورة، ويكون بينهما في الحقيقة من البعد ما بين عبادة وعادة، لأن أحدهما قام لله والآخر قام لأعين الناس.

وفي هذا العلم المزدوج عزاءٌ ورهبةٌ؛ عزاءٌ للمخلص الذي لم يفهمه الناس، لأن خفاء مقصده عنهم لا يخرجهم من علم الله، ورهبةٌ لصاحب القناع الذي أتقن صناعة الصورة، لأن نجاحه في تضليل الأبصار لا يبدل شيئاً من الحقيقة المكشوفة لرب العالمين. كم من كلمةٍ جهر بها صاحبها دفاعاً عن الحق، وكان في خفاءها طلبٌ للذات، وكم من صمتٍ ظنه الناس ضعفاً، وكان في باطنه صبرٌ وحكمةٌ وخشيةٌ من ظلم بريء. إن الله لا يتخذعه بلاغة المظهر، ولا يضيع عنده صدق الخفاء، ولذلك كان إصلاح السريرة أهم من تحسين السمعة، وكانت اللحظة التي يخلو فيها الإنسان بنفسه أصدق اختبارٍ لما يدعيه أمام الجمهور.

والآية، في سياق إقراء النبي صلى الله عليه وسلم، تمنح معنى خاصاً من الطمأنينة؛ فالذي يعلم الجهر وما يخفى يعلم حرص رسوله على الوحي، وما يختلج في قلبه من الخوف على حفظه، وما يواجهه في طريق تبليغه، فلا يحتاج الرسول إلى أن يحمل همّه إلى من لا يراه، لأن ربه يعلم الخاطر قبل أن يصير شكوى. ومن عرف أن الله يعلم ما يخفى، لم يعد مضطراً إلى شرح

نفسه في كل موطن، ولا إلى الدفاع عن نيته أمام كل متهم، يكفيه أن يصحح باطنه، ويقيم حجته بقدر الحاجة، ثم يترك ما لا يملكه لعلم من لا تخفى عليه خافية.

من علم السرائر إلى تطهيرها

لا ينبغي أن يبقى الإيمان بعلم الله فكرةً عقديّةً لا تمس السلوك؛ فكلها ازداد الإنسان يقيناً بأن الله يعلم ما يخفى، ضاق الفاصل بين ظاهره وباطنه، واستحيا أن يبني لنفسه صورتين: صورةً منمقة للناس، وحقيقةً مهملة في الخلوات. إن النفاق الأخلاقي يبدأ حين يصبح وعي الإنسان بأنظار البشر أقوى من وعيه بنظر الله إليه، فيتقن ما يرى ويهمل ما لا يرى، ويشغل بتحسين العبارة أكثر من تصحيح القصد، ويتميم السمعة أكثر من مداواة الروح.

أما المؤمن فيعرف أن الخفاء ليس موضعاً خارج الرقابة، بل هو الموضع الذي تتجلى فيه حقيقة العبودية؛ لأن الطاعة التي لا يعلم بها أحد أصفى من شوائب التمثيل، والموقف الذي يترك فيه الإنسان معصيةً لا يراه فيها بشر يعلن أن الله هو الأعلى في قلبه حقاً. وقد يفشل المرء أحياناً في حفظ توازنه، أو يجد في نفسه رغبةً في الثناء، لكنه لا يبرر الداء ولا يحوله إلى هوية؛ يراه في ضوء ﴿يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى﴾، فيعود إلى إصلاح النية،

ويجاهد أن يكون سره أصلح من علانيته، أو على الأقل ألا تكون علانيته قناعاً يخفي نقيضها.

التيسير الذي يصنع صاحب الرسالة

بعد وعد الإقراء يأتي الوعد الثاني: ﴿وَيُسِّرْكَ لِلْيُسْرَى﴾. ولم تقل الآية: «ونيسر لك اليسرى» فحسب، وإنما قالت: ﴿وَيُسِّرْكَ﴾، وكأن التيسير لا يقع على الطريق وحده، بل يقع على الإنسان نفسه؛ فتُهيأ روحه، وتُشرح نفسه، وتُقوّى إرادته، وتنسجم فطرته مع العمل الذي اختاره الله له، حتى يصبح ميسراً للطريق كما يصبح الطريق ميسراً له. وقد تكون العقبة في كثير من الأحيان داخل السائر لا في الطريق؛ يرى التكليف ثقیلاً لأن قلبه لم ينضج له، ويجد الحق صعباً لأن شهوته ما تزال تشده إلى الجهة الأخرى، فإذا أصلح الله باطنه صار ما كان حملاً جناحاً، وما كان قيداً حرية.

و«اليسرى» كلمةٌ واسعة تشمل الشريعة السمحة، وطريق الخير، والأعمال التي تقود إلى رضوان الله، والطريقة الأيسر والأقوم في حمل الرسالة وتليغها. وهي لا تعني أن طريق الدعوة سيخلو من الألم، فسيرة النبي صلى الله عليه وسلم امتلأت بالأذى والفقد والحصار والهجرة والقتال، ولكن اليسر أعمق من انعدام المشقة. قد تكون الظروف عسيرةً بينما القلب ميسراً للثبات، وقد يضيق الطريق في الظاهر بينما يفتح الله في النفس سعةً

تجعله قابلاً للمضي، وقد تنكأثر التضحيات لكن وضوح الغاية يرفع عنها عبث الألم. فالعسر الحقيقي ليس وجود الشدة، بل فقدان المعنى فيها؛ أما حين يعرف الإنسان لماذا يصبر، ولمن يبذل، وإلى أين يمضي، تتحول المشقة من جدارٍ يسد الطريق إلى جزء من بنائه.

إن تبسّر النبي صلى الله عليه وسلم لليسرى تجلّى في شخصيته الجامعة التي أقامها الله لحمل خاتم الرسالات: رحمةٌ لا تلغي الحزم، وحزمٌ لا يتحول إلى قسوة، وثباتٌ على المبدأ مع بصيرةٍ بأحوال الناس، وعبادةٌ عميقة لا تعزله عن تدير المجتمع، وشجاعةٌ لا تفسدها الرغبة في الانتقام. وهذه التسوية النبوية ليست مجرد مواهب متفرقة، بل إعدادٌ رباني لمهمةٍ تحتاج إلى قلب يتسع للضعفاء، وعقلٍ يدبر التحولات، وإرادةٍ لا تهزمها الجراح. ومن تأملها أدرك أن الرسالات الكبيرة لا تحملها الحماسة وحدها، بل تحتاج إلى إنسانٍ يُصنع باطنه على قدر أمانته.

اليسر ليس تدليلاً للهوى

وقد يلتبس معنى التبسّر في عصرٍ صار يقيس سهولة الأشياء بمقدار موافقتها للرغبة؛ فما أحبه الإنسان سماه يسيراً، وما خالف شهوته وصفه بالتعقيد والتشدد. لكن «اليسرى» في القرآن ليست الطريق التي تعني النفس من المجاهدة، بل الطريق التي توصلها إلى الفلاح وفق فطرتها التي

خلقها الله عليها؛ وقد يكون الدواء مرًا لكنه أيسر من استفحال الداء، وقد تكون المصارحة مؤلمة لكنها أيسر من بناء العمر على كذبة، وقد يكون الانضباط ثقیلاً في أوله لكنه أيسر من عبودية الفوضى، وقد يكون رد المال الحرام شاقاً لكنه أيسر من حمل تبعته إلى الآخرة.

إن اليسر الحقيقي يُقاس بالمآل لا بلحظة البداية؛ فقد تبدو المعصية يسيرة لأنها تمنح لذة عاجلة، لكنها تفتح في الروح طريقاً من التعقيد والوحشة، وقد تبدو التوبة شاقة لأنها تتطلب اعترافاً وإصلاحاً، لكنها تحرر القلب من أثقال سنوات. ومن هنا نتصل «اليسرى» بما سيأتي في السورة من المقارنة بين الدنيا والآخرة؛ فنحكم بلحظة الحاضر قد يختار الأدنى لأنه أسهل، أما من رأى النهاية أدرك أن طريق الله هو الأيسر وإن تطلب مجاهدة، لأن كل طريقٍ سواه ينتهي إلى عسرٍ أكبر من اللذة التي بدأ بها.

والشريعة في مجموعها يسرٌ لأنها توافق حقيقة الإنسان وتحفظ ضروراته، ولا تكلفه ما لا يطيق، وتفتح أبواب الرخص عند المشقة، وأبواب التوبة بعد الذنب، وتجعل صلته بالله ممكنة في كل حال؛ غير أن هذا اليسر لا يعني تفرغ التكليف من جوهره، فالصلاة يسرٌ في ميزان الفطرة وإن قاومتها النفس الكسولة، والصوم يسرٌ في مآله وإن وجدت فيه المعدة جوعاً، والصدق يسرٌ للعلاقات وإن ضاق به صاحب المصلحة العاجلة. إن الهوى

يرى اليسر في إسقاط الواجب، أما الوحي فيراه في تحرير الإنسان من التناقض الذي يمزق روحه حين يعرف الحق ويعيش نقيضه.

التيسير الداخلي وولادة العادة الصالحة

قوله تعالى: ﴿يُسِّرْكَ﴾ يلفت إلى أن الطاعة يمكن أن تنتقل، بفضل الله والمجاهدة، من كونها عملاً غريباً على العادة إلى أن تصبح سجيةً محبوبة؛ فالإنسان يتشكل بما يكرر، وكل فعلٍ يفتح في النفس مساراً يسهل الرجوع إليه. من اعتاد الصدق وجد الكذب ثقيلاً، ومن رَوّض لسانه على الذكر صار الصمت عن الله وحشة، ومن حفظ بصره أول الأمر بالمجاهدة تحولت العفة في داخله إلى ذوق، ومن عودّ نفسه الاستجابة لنداء الصلاة صار تأخيرها اختلالاً يشعر به قبل أن يحاسبه عليه غيره.

وعلى الجانب الآخر، فإن التهاون ييسر للعسرى؛ فكل معصية يكرها الإنسان تزيل شيئاً من نفوره منها، حتى يصبح ما كان يستقبحه عادةً يدافع عنها، ثم تتحول العادة إلى قيد يظنه جزءاً من شخصيته. ولهذا لا ينبغي الاستهانة بالفعل الصغير؛ فهو لا ينتهي عند لحظته، بل يشارك في صناعة الفاعل. كل اختيار يقول للنفس: كوني على هذا النحو، وكل تكرار يحفر الطريق أعمق، حتى يأتي يوم يجد فيه الإنسان نفسه ميسراً لما ظل يختاره. ومن رحمة الله أن باب التحول لا يغلق ما دامت الحياة، وأن المجاهدة

الصادقة تستطيع — بعونه — أن تحفر طريقاً جديداً ولو تقادمت طرق الغفلة.

من العناية إلى التكليف

بعد ثلاثة أفعال محورها العناية الإلهية — ﴿سَنُقَرِّثُكَ﴾، ﴿فَلَا تَنسَى﴾، ﴿وَنُيَسِّرْكَ﴾ — يأتي الأمر: ﴿فَذَكِّرْ﴾. وهذا الترتيب بالغ الدلالة؛ فالله يمد رسوله أولاً بالوحي والحفظ واليسير، ثم يأمره بالحركة والبلاغ. التكليف لا يأتي في فراغ، والعطاء يسبق المطالبة، والمنحة تؤسس للمهمة؛ ومع ذلك لا تجعل العناية صاحبها ساكناً، بل تحمله إلى أداء حقها. فمن أقرئ لزمه أن يبلغ، ومن هُدي لزمه أن يدل، ومن ذاق النور لا يليق به أن يحتكره في زاوية نفسه.

والفاء في ﴿فَذَكِّرْ﴾ تصل النعمة بالواجب: بما أننا سنقرئك ونيسرك، فقم بوظيفة التذكير. وهنا تتجلى حقيقة الرسالة؛ إنها ليست امتيازاً يمنح صاحبه مقاماً اجتماعياً، بل عبء أمانة يجعله مسؤولاً عن نقل النور إلى من حوله. وكل معرفة صادقة تحمل في داخلها قدراً من المسؤولية؛ فالذي عرف خطورة طريق ثم سكت عمن يسير إليه لا يستطيع أن يعامل معرفته كزينة شخصية، والذي أبصر مظلوماً وقدر على كلمة تنصره لا يبقى حياده فراغاً أخلاقياً، بل يصبح موقفاً له أثر.

لكن التذكير القرآني ليس استعراضاً لتفوق المذكر، ولا محاكمةً متعاليةً للمخطئ، بل ردُّ للإنسان إلى ما يصلحه. فالمدِّكر الحق لا يقف فوق الناس بوصفه ناجياً بطبيعته، وإنما يقف بينهم بوصفه محتاجاً إلى الذكري مثلهم، غير أن الله حمّله لحظةً كلمةً ينبغي أن يؤديها. وكلما نسي الداعية فقره إلى الهداية تحول خطابه إلى قسوة، وكلما استحضر أنه هو أيضاً عبدٌ يتقلب قلبه صار أرفق بالضعف البشري، وأشدّ وضوحاً مع الباطل من غير أن يفقد الرحمة بصاحبه.

التذكير لا اختراع الحقيقة

اختيار فعل ﴿فَذَكِّرْ﴾ يكشف أن الإيمان يوقظ في الإنسان معرفةً مطموسةً ولا يزرع فيه غريباً محضاً عن فطرته؛ فالنفس تحمل استعداداً لمعرفة ربها، وإجلال الحق، واستقباح الظلم، لكنها تتعرض لطبقات من النسيان تصنعها الشهوة والبيئة والمصلحة والتكرار. ويأتي الوحي ليزيل الركام، لا ليصادم أصل الفطرة، ولذلك يشعر القلب أحياناً عند سماع الحقيقة كأنه يستعيد شيئاً كان يعرفه ثم غاب عنه، لا كأنه يستقبل معنى لا صلة له به.

والنسيان هنا أوسع من غياب المعلومة؛ فقد يعرف الإنسان أن الموت حق، لكنه يعيش كما لو كان مستثنىً منه، ويعلم أن المال لا يدوم، لكنه يبيع من أجله ما لا يعوض، ويعرف أن الظلم قبيح، ثم يجد له اسماً آخر

حين يصدر من يحب. إنه لا يحتاج دائماً إلى معلومة جديدة، بل إلى استعادة الفاعلية الأخلاقية لما يعرفه؛ وهنا وظيفة التذكير: أن ينقل الحقيقة من هامش الوعي إلى مركز القرار، ومن المعرفة الباردة إلى الرؤية التي تغير السلوك.

كم من إنسان يعرف عشرات المواعظ، لكن معرفته تشبه كتباً مغلقة في مكتبة لا يدخلها؛ وحين تقع في قلبه ذكرى صادقة، لا تزيد عدد الكتب بقدر ما تفتح واحداً منها وتجعله يقرأ نفسه فيه. ليست قوة التذكير في غرابة العبارة وحدها، بل في وصولها إلى اللحظة التي تلتقي فيها الحقيقة باستعداد النفس، فتصدع طبقة الغفلة، ويرى الإنسان حياته كأنه يراها للمرة الأولى.

«إن نفع الذكرى»: فقه الخطاب لا تعطيل البلاغ

ثم يأتي القيد: «إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى»، وقد ذكر المفسرون في دلالته وجوهاً متقاربة؛ فمنهم من حمّله على أن التذكير مأمور به حيث يُرجى نفعه، ومنهم من رأى أن الشرط لا يعني ترك التذكير عند عدم ظهور الانتفاع، لأن الذكرى نافعة في ذاتها، ولأن الحجة تقوم بها، وإنما يوجّه إلى مراعاة مواضع النفع وأحوال المخاطبين، أو جاء على الأسلوب الذي يشير بتحقيق الثمرة التي ستفصلها الآيات التالية: «سَيَذَكَّرُ مَنْ يَخْشَى رَبَّهُ وَيُحِبُّهَا

الأشقي. وعلى كل حال، لا يجوز أن تتحول الآية إلى ذريعة لاحتكار الحق أو الحكم المسبق على الناس بأنهم لا يستحقون البيان؛ فالرسول صلى الله عليه وسلم بُعث مبلغًا، والقلوب بيد الله، ومن يبدو اليوم بعيداً قد تفتح له غداً نافذة لم تكن في الحسبان.

غير أن الآية تؤسس بلا ريب لفقهٍ في التذكير؛ فليس كل حق يُقال بالطريقة نفسها، ولا كل وقت يصلح لكل خطاب، ولا كل نفس تُفتح بالمفتاح الذي تفتح به غيرها. قد تكون الكلمة صحيحةً لكن توقيتها يفسد أثرها، وقد يكون المعنى جليلاً لكن الأسلوب المتعالي يقيم بينه وبين القلب جدراً، وقد يكرر الإنسان نصيحته حتى تتحول من باب هداية إلى وسيلة إذلال. والحكمة ليست في إخفاء الحق، بل في اختيار المدخل الذي يصونه من سوء العرض، ويراعي حال المخاطب من غير أن يزور المضمون.

إن من الناس من توقظه الحجة، ومنهم من توقظه القصة، ومنهم من تفتح قلبه الرحمة بعد أن أغلقه التوبيخ، ومنهم من يحتاج إلى صدمة تكسر اعتياده. والمذكر البصير لا يجعل ذوقه الشخصي معياراً وحيداً للخطاب، ولا يخاطب جراح الناس كما لو كانت نسخاً متطابقة؛ فالقلوب عوالم، وما يبدو عناداً قد يخفي وراءه خوفاً، وما يبدو لامبالاةً قد يكون دفاعاً عن ألم قديم، وما يبدو سؤالاً فكرياً قد تستتر تحته حاجة نفسية إلى الأمان. وليس

معنى هذا أن يذوب الحق في التحليل النفسي، بل أن يُقدّم للإنسان كاملاً مع فهمٍ للباب الذي يمكن أن يدخل منه.

حدود المسؤولية عن الهداية

تضع الآية الداعية أمام حدٍّ يريحه من وهمٍ ثقيل: مهمتك أن تذكر، أما خلق الاستجابة في القلب فليس إليك. يستطيع الإنسان أن يبين، ويكرر بحكمة، ويضرب المثل، ويحسن الخلق، لكنه لا يملك أن يفتح قلباً أصر صاحبه على إغلاقه. وحين ينسى المذكر هذا الحد، قد يتحول حرصه إلى استبداد؛ يريد من الناس أن يستجيبوا في الوقت الذي حدده، وبالصورة التي تصورها، فإذا تأخروا غضب لنفسه تحت اسم الغضب للحق.

إن الهداية توفيق من الله، والتذكير سببٌ من أسبابها، فلا يُترك السبب بحجة أن القلوب بيد الله، ولا يُؤلَّه السبب حتى يظن الداعية أن بلاغته تهدي من تشاء. هذا التوازن يحفظ العامل من اليأس والكبر معاً، فلا ييأس إذا لم ير الثمرة عاجلاً، لأن البذرة قد تنام في الأعماق حتى يأتي مطرها بعد سنوات، ولا يتكبر إذا رأى أثر كلمته، لأنه يعلم أن كثيرين سمعوا العبارة نفسها ولم تفتح قلوبهم، وأن الذي جعلها نافعةً في هذه النفس هو الله.

وقد ينطق إنسان بكلمة صادقة ثم يمضي وينساها، بينما تظل هي في قلب سامعها تعمل بصمت؛ تعترضه كلما همّ بخطأ، وتعود إليه عند انكساره، حتى تصبح بعد زمنٍ نقطة تحول لا يعلم صاحب الكلمة عنها شيئاً. وعلى الجانب الآخر، قد يقضي المذكر عمراً ينتظر ثمرة ظاهرة ولا يراها، ويكون صدقه في أداء الأمانة هو الثمرة التي أرادها الله له، ويكون قيام الحجة أو حفظ معنى الحق من الاندثار بعض ما كُتب لعمله. إن النتائج ليست دائماً بالصورة التي يتوقعها العامل، والله يعلم الجهر وما يخفى، ويعلم أثر الكلمات حين يغيب عن قائلها وسامعها.

حين تفشل الموعدة لأنها لم تبدأ بصاحبها

لا تكون الذكري نافعةً في الآخرين إذا كان صاحبها يعامل نفسه كأنها فوق التذكير؛ فالكلمة التي لا يصدقها السلوك تصل إلى الأسماع مجروحة، والموعدة التي يكذبها صاحبها بفعله قد تزيد الناس نفوراً من الحق الذي يتحدث عنه. وليس المطلوب من المذكر أن يكون معصوماً من الخطأ، فهذا لا يكون لبشر بعد الأنبياء، وإنما المطلوب أن يكون صادق المجاهدة، يعترف بتقصيره، ولا يحول المنبر إلى ستار يخفي وراءه ما لا يريد إصلاحه.

إن الناس قد يغفرون للإنسان ضعفه إذا رأوا صدقه، لكنهم ينفرون من ازدواجٍ يطالبهم بالكمال بينما يمنح نفسه تراخيص لا تنتهي. ولذلك فإن

أول أرض تقع عليها الذكرى هي نفس المذكر؛ يقرأ الآية ليراها مرأة له قبل أن يجعلها نافذةً يراقب منها عيوب غيره، ويسأل نفسه: ماذا تريد هذه الكلمة مني؟ قبل أن يسأل: على من ينبغي أن أطبقها؟ وحين يخرج الخطاب من قلب جرح بالحق وداواه الحق، يحمل حرارةً لا توجد في الكلام المصنوع للزينة.

الذاكرة الأخلاقية ومقاومة تبدل الشعور

تحتاج المجتمعات إلى التذكير لأنها، مثل الأفراد، تصاب بالنسيان؛ وقد لا تنسى الواقعة نفسها، لكنها تنسى معناها الأخلاقي. تتكرر المظالم حتى تصبح أخباراً عادية، ويطول الفساد حتى يتعلم الناس التعايش معه، وتنتشر اللغة المضللة حتى تُسمى الخيانة واقعية، والجبن حكمة، والاستسلام سلاماً، وسلب الحقوق تنظيماً. وهنا لا تكون وظيفة المذكر أن يقدم معلومةً مجهولة، بل أن يعيد للأسماء حقيقتها، ويحفظ الضمير من التبدل، ويمنع الاعتياد من تحويل القبيح إلى مألوف والمألوف إلى مشروع.

إن أخطر انتصار يحققه الباطل ليس أن يُكره الناس على الصمت، بل أن يعيد تشكيل حساسيتهم حتى لا يعودوا يرونه باطلاً. وحينئذ تصبح الذكرى مقاومةً لحركة المحو؛ تذكّر المظلوم أنه صاحب حق، وتذكّر القوي أن قدرته محدودة، وتذكّر المجتمع أن كثرة الفاعلين لا تحول الجريمة إلى

فضيلة، وتذكر صاحب المبدأ أن طول الطريق لا يبدل الجهة. والكلمة الصادقة قد لا تسقط بناء الظلم في لحظتها، لكنها تمنع الظلم من احتلال اللغة والضمير معاً، وتحفظ في الناس شاهداً يقول إن ما حدث لم يكن طبعياً ولا مقبولاً.

وفي داخل الفرد تؤدي الذكرى الوظيفة نفسها؛ فالذنب الأول قد يوجع القلب، ثم يضعف الوجد مع التكرار، حتى يصبح الفعل جزءاً من المشهد اليومي. ليست الخطورة في المعصية وحدها، بل في موت القدرة على الإحساس بها؛ لأن الألم الأخلاقي، على قسوته، علامة على أن موضع الحياة لم يمت بعد. وتأتي الذكرى لتعيد الحس إلى القلب، وقد يكون رجوع الألم نعمة؛ فالجرح الذي يؤلم يمكن علاجه، أما العضو الذي فقد الإحساس فقد يتآكل وصاحبه لا يدري.

التذكير بين الرحمة والإنذار

الذكرى القرآنية لا تسلك طريقاً واحداً؛ فهي تفتح أبواب الرجاء وتكشف مهاوي الخوف، وتعرض نعم القرب كما تحذر من سوء المصير. وهذا التوازن ضرورة في خطاب النفس، لأن من الناس من كسره الخوف حتى يحتاج إلى أن يسمع عن الرحمة، ومنهم من خدّته الأماني حتى يحتاج إلى أن يسمع عن الحساب. فإذا استعمل المذكر التخويف مع

المنكسر قد يدفعه إلى اليأس، وإذا استعمل التطمين مع المتلاعب قد يمنحه غطاءً للاستمرار؛ والحكمة أن يوضع الدواء في موضع الداء.

غير أن الرحمة ليست دائماً كلاماً ليناً، كما أن الشدة ليست دائماً قوة؛ فقد تكون الرحمة في مصارحةٍ تمنع إنساناً من مواصلة طريق الهلاك، وقد تكون القسوة في جملة تتركه يسير إلى الحفرة كيلا نغص عليه لحظته. معيار الرحمة ليس نعومة العبارة وحدها، بل إرادة الخير للمخاطب، مع اختيار أحكم سبيل لبلوغه. وقد كان القرآن يصف الداء بوضوح لا مواربة فيه، لكنه يفتح في اللحظة نفسها باب العودة، فلا يجعل الخطأ هويةً أبديةً تلصق بصاحبه، ولا التوبة أمانةً رخيصةً بلا تغيير.

وحدة الآيات: الحفظ والتيسير والتذكير

تتنظم هذه الآيات الأربع في حركةٍ واحدة: وحيٌ يُقرأ، وذاكرةٌ تُحفظ، ومشيةٌ تُحيط، وعلمٌ يكشف الظاهر والخفي، ونفسٌ تُيسر لطريق الخير، ثم رسالةٌ تخرج إلى الناس في صورة ذكرى. إنها تصف رحلة الكلمة من مصدرها الرباني إلى القلب النبوي، ثم من القلب إلى العالم؛ فلا انقطاع بين المعرفة والحركة، ولا بين الحفظ والبلاغ، ولا بين التلقي والمسؤولية. الوحي الذي يبقى داخل الصدر من غير أن يتحول دعوةً وعملاً لم يؤد

وظيفته كاملة، والدعوة التي لا تبدأ بالتلقي الصادق تصبح ضجيجاً بشرياً يحمل اسم الدين ولا يحمل نوره.

كما تكشف الآيات أن الله لا يعد رسوله بإزالة كل صعوبة خارجية، بل بما هو أعمق: أن يحفظ له الوحي، ويسره لليسرى، ويمنحه وضوح الوظيفة. قد يبقى المكذبون مكذابين، وقد تتفاوت استجابة السامعين، لكن الطريق في ذاته صار واضحاً، والقلب صار معداً له، والرسالة محفوظة فيه. وهذه هي العناية التي يحتاجها أصحاب المبادئ: ليس أن يخلو العالم من المقاومة، بل أن يخلو داخلهم من الحيرة في الأصل، وأن يعرفوا ما يحملون، ولماذا يحملونه، وأن يجدوا في صلتهم بالله من السعة ما يعينهم على ضيق الطريق.

من يسمع النداء؟

تنتهي هذه الوحدة بالأمر بالتذكير، لكنها تترك سؤال الاستجابة مفتوحاً: إذا كانت الذكرى تُلقى على الناس، فلماذا يستجيب لها بعضهم ويعرض بعضهم؟ هل الفرق في وضوح الحجّة وحده، أم أن في باطن النفس استعداداً أخلاقياً يفتحها أو يغلقها؟ هنا تنقلنا السورة من طبيعة الرسالة إلى طبيعة المتلقين، ومن العناية التي أحاطت بالمبليغ إلى القسمة التي تشكل في القلوب أمام ما يبلغه.

سيأتي الجواب في صورة مقابلةٍ حاسمة: قلبٌ يحمل من الخشية ما يجعله يتذكر، ونفسٌ بلغ بها الشقاء أن تتجنب الذكرى حتى تقودها مجانبتها إلى النار الكبرى. وليس الفارق بينهما مقدار الذكاء ولا كثرة المعلومات، بل موقف الإنسان من الحقيقة حين تقترب من مواضع هواه؛ فمن يخشى لا يكون كاملاً بلا ذنب، لكنه يحتفظ في داخله بمساحةٍ ينفذ منها النور، أما الأشتى فقد لا تعوزه المعرفة، وإنما يعوزه الاستعداد لأن يدفع ثمنها.

ومن هنا تبدأ القسمة الثنائية للمآل البشري، لا على أساس اللون والنسب والمال، ولا على أساس المظهر الاجتماعي والقدرة على الكلام، بل على أساس أعمق: ماذا يحدث للقلب حين تأتبه الذكرى؟

﴿سَيَذَكَّرُ مَنْ يَخْشَى ۖ وَيُتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى﴾

الفصل الثالث

القِسْمَةُ الثُّنَائِيَّةُ لِلْبَالِ الْبَشَرِيِّ

الآيات من العاشرة إلى الخامسة عشرة

قال الله تعالى:

﴿سَيَذَكِّرُ مَنْ يَخْشَى ۖ وَيُتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى ۖ الَّذِي يَصْلَى النَّارَ
الْكُبْرَى ۖ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ۖ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ۖ
وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ۝﴾

الكلمة الواحدة والقلوب المختلفة

بعد أن صدر الأمر الرباني: ﴿فَذَكَرْ إِنَّ نَفْعَ الذِّكْرِ﴾، تكشف
السورة أن الناس لا يقفون أمام التذكير في موضع واحد، وأن الكلمة
الواحدة قد تنزل على قلبين فوقظ في أحدهما حياةً دفينَةً، بينما يتعد عنها
الآخر كأنها تهدد وجوده. ليست المشكلة دائماً في أن الحقيقة لم تصل، بل
قد تكمن في الهيئة الباطنية التي تستقبلها؛ فالمطر الواحد ينزل على أرضٍ
رخوة فتتشربه وتنبت، وينزل على صخرةٍ صماءٍ فينحدر عنها ولا يترك فيها
أثراً، والفرق ليس في الماء، بل في قابلية الموضع.

إن الوحي لا يصنع آثاره في النفس بطريقٍ آلي يلغي حرية الإنسان وموقفه، وإنما يخاطبه ويستخرج ما اختار أن يخبئه في داخله؛ فمن ظل يحرس بقية الخشية في قلبه وجد في الذكرى صوتاً يعرفه، ومن درب نفسه طويلاً على التهرب من المحاسبة رأى في النص امرأةً مزججةً يريد تحطيمها بدل أن يصلح الوجه الذي تكشفه. وهكذا تنقسم النفوس لا بحسب ما تسمع فقط، بل بحسب ما تفعله بما تسمع، ولا بحسب ما تعرف فحسب، بل بحسب مقدار استعدادها لأن تسمح للمعرفة بتغييرها.

والآيات هنا لا تعرض تقسيماً نظرياً ساكناً، بل ترسم مصيرين ينحدران من استجابتين: تذكُّرٌ يقود إلى التزكية والذكر والصلاة والفلاح، وتجنبٌ يقود إلى الشقاء والنار والحياة التي فقدت معناها من غير أن تنتهي. وبين أول التفاتةٍ إلى الذكرى وآخر مشهدٍ في المصير مسافةٌ تصنعها الاختيارات المتراكمة؛ فالإنسان لا يستيقظ غالباً فيجد نفسه في نهاية الطريق من غير مقدمات، وإنما يبني المآل في داخله خطوةً بعد خطوة، كلها اختار أن ينصت أو يعرض، وأن يطهر قلبه أو يبرر فساده، وأن يعود أو يمضي.

الخشية: معرفةٌ دخلت القلب

تقول السورة: ﴿سَيَذْكُرُ مَنْ يَخْشَى﴾، فتجعل الخشية مفتاح الانتفاع بالذكرى. والخشية ليست خوفاً غامضاً يولده الجهل، بل خوفٌ ممتزجٌ

بالمعرفة والتعظيم؛ فكلها عرف العبد ربّه، وعرف كماله وعلمه وعدله وقدرته ورحمته، اتسع في قلبه الحياء من مخالفته، والخوف من البعد عنه، والرهبة من الوقوف بين يديه. ولهذا تختلف الخشية عن الفزع الذي يشل الإرادة؛ إنها لا تدفع المؤمن إلى الفرار من الله، بل إلى الفرار إليه، ولا تغلق باب الرجاء، بل تحرسه من أن ينقلب أمانياً فارغةً تسمح للإنسان بأن يسيء ثم يتكى على رحمة لم يسلك طريقها.

فالخوف المجرد قد يجعل الإنسان يختبئ من الحقيقة، أما الخشية فتجعله يقترب منها ولو آلمته؛ لأنه يعلم أن ألم الانكشاف في الدنيا أرحم من ألم الحساب في الآخرة. والذي يخشى لا يسمع الموعظة ليسأل: على من تنطبق؟ بل يسأل: ما نصيبي منها؟ ولا يقرأ آيات الوعيد لبحث في مصائر الآخرين، بل ليفتش عن البذور التي قد تقوده إلى مصيرهم إن تركها تنمو. والخشية بهذا المعنى ليست سوطاً على الروح، وإنما يقظة تمنعها من النوم قرب الهاوية.

وقد اختارت الآية صيغة الفعل: ﴿يَخْشَى﴾، لأن الخشية حالة حية تتجدد كلما تجددت معرفة العبد بربه وبنفسه؛ فهو لا يعتمد على خوف قديم مر به ثم اطمأن إلى أنه أصبح بمنأى عن الفتنة، بل يظل يقظاً لتقلب القلب، عارفاً أن الإنسان قد يفسد من الباب الذي كان يظن نفسه محصناً منه. ومن هنا لا تصنع الخشية شخصيةً قلقةً من كل حركة، بل تصنع روحاً

لا تمنح نفسها صكوك الأمان، وتوازن بين حسن الظن بالله وسوء الظن بضعفها، فتستعين ولا تغتر، وترجو ولا تثكل على عملها، وتحاسب نفسها من غير أن تيأس من رحمة ربها.

الخشية التي تحفظ حرية الإنسان

قد يبدو الخوف في النظرة السطحية نقيضاً للحرية، غير أن الخشية من الله تحرر الإنسان من مخاوف كثيرة؛ فمن خاف مقام ربه لم يعد مضطراً إلى عبادة رضا الجمهور، ومن استحضر الحساب لم تبعه المصلحة في كل سوق، ومن علم أن الرزق بيد الله لم يجعل كرامته ثمناً على أبواب البشر. إن القلب لا يعيش بلا خوف، لكنه يختار — بوعي أو بغير وعي — ما الذي يخافه أكثر: خسارة الحق أم خسارة المنفعة، غضب الله أم غضب الناس، فساد الروح أم انكسار الصورة.

وحين يغيب خوف الله لا يصبح الإنسان شجاعاً بالضرورة، بل تتكاثر عليه الآلهة الصغيرة؛ يخاف الفقر حتى يبيع ضميره، ويخاف العزلة حتى يوافق الجماعة على باطلها، ويخاف النقد حتى يصنع من حياته تمثيلاً مستمراً، ويخاف سقوط المكانة حتى يدافع عن الخطأ الذي أوصله إليها. أما الخشية فتوحد هذه المخاوف المتناثرة في مرجعية واحدة، وتجعل الإنسان قادراً على أن يقول «لا» حين تصبح الموافقة خيانة، وعلى أن يعترف حين يصبح

الإنكار فساداً، وعلى أن يتراجع عن خطئه ولو صفّق له الناس وهو يمضي فيه.

ولهذا كان من يتذكر هو «من يخشى»؛ لأن الذكرى تحتاج إلى قلبٍ يعترف بأن فوقه معياراً يحاكمه، أما الذي جعل ذاته المعيار النهائي فلن يرى في النص إلا ما يؤيدها. إنه قد يقرأ الوحي، لكنه لا يسمح له بأن يقرأه؛ ينتقي منه ما يعزز صورته، ويتجاوز ما يهدم كبرياءه، فيتحول الكتاب في يده من قوةٍ للتغيير إلى أداةٍ للتبرير. والخشية وحدها تكسر هذا الاستعلاء، فتضع الإنسان أمام القرآن تلهيلاً لا قاضياً، ومستجيباً لا مستهلكاً يبحث عما يوافق ذوقه.

السين ووعده استيقاظ القلوب

في قوله تعالى: ﴿سَيَذَرُكَ﴾ وعدٌ بأن التذكير لن يذهب كله في الفراغ؛ ستوجد نفوسٌ تنتفع، وإن علا ضجيج الإعراض، وستفتح قلوبٌ لأن فيها خشيةٌ تجعلها مستعدةً للحق. وهذه طمأنينةٌ للبَّغ حتى لا يقيس قيمة الكلمة بعدد المستجيبين في اللحظة، ولا يظن أن ارتفاع صوت الباطل يعني موت الاستعداد للخير. قد يحتجب أصحاب الخشية في الزحام، ولا يملكون المنابر ولا يملؤون المشهد، لكن الكلمة تعرف طريقها إليهم، وحين تصل ربما أنشأت تحولاً لا تصنعه آلاف الأصوات العالية.

وفي هذه السنين كذلك إشارة إلى أن أثر الذكرى قد يتأخر؛ فقد يسمع الإنسان الكلمة اليوم ولا يظهر عليه شيء، ثم تعود إليه بعد سنين حين تنضج التجربة التي تفسرها، أو حين تسقط من حوله الجدران التي كانت تمنعه من رؤيتها. إن بعض الحقائق تحتاج إلى وقتٍ كي تعبر من الأذن إلى القلب، وبعض البذور لا تنبت في موسم إلقائها، لكنها لا تضع. وهذا لا يعني التسويف في الاستجابة، بل يمنح العامل صبراً على ما لا يراه من آثار عمله، ويمنعنا من إصدار أحكام نهائية على قلوب لا نعرف ماذا يدور في خفائها.

التذكر بوصفه عودةً إلى الذات الصحيحة

الإنسان حين يتذكر الله لا يخرج من ذاته، بل يعود إلى حقيقتها؛ لأن نسيان الرب هو الذي يدفعه إلى الاغتراب عن نفسه، فيعرف ما حوله ويجهل ما خلق له، ويكدس الوسائل ويفقد المعنى. وقد أخبر القرآن في موضع آخر عن الذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم؛ وهي مفارقة تكشف أن الذات لا تُعرف على حقيقتها بمعزل عن خالقها. فمن أنا إذا قطعت قصتي عن المبدأ والمصير؟ جسدٌ يتحرك سنوات ثم يذوب في التراب، ورغباتٌ تبدل، وأدوارٌ اجتماعية تسقط واحداً بعد آخر. أما حين أعرف أنني عبدٌ لله، وأن الحياة ابتلاء، وأن لي رباً خلق فسوى وقدّر فهدى، تتجمع شظايا الذات في معنى جامع.

ولهذا يورث التذكر نوعاً من السلام الداخلي؛ لا لأنه يلغي الصراع، بل لأنه يمنحه جهة. إن أشد ما يتعب الإنسان ليس بذل الجهد وحده، وإنما أن يبذله في اتجاهات متناقضة؛ يريد رضا الله ورضا الهوى في آن، ويطلب لقاء القلب مع الإقامة على ما يلوته، ويتمنى السكينة وهو يربطها بما لا يثبت. فإذا جاءت الذكرى جمعت الإرادة حول غاية أعلى، وكشفت أن كثيراً من التشتت لم يكن نتيجة كثرة الواجبات بقدر ما كان نتيجة تعدد الأرباب في الداخل.

الطرف الآخر: التجنب لا مجرد الغفلة

في مقابل ﴿سَيَذَرُكَ مَنْ يُخَشَى﴾ تقول السورة: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى﴾. ولم تقل: «ولا يتذكر الأشقى» فحسب، بل اختارت التجنب، وهو فعلٌ يوحي بحركة مقصودة للابتعاد؛ كأن الذكرى تقترب منه، فيأخذ جانباً آخر حتى لا تمسه. إنه لا يعيش فراغاً من الحق، بل يمارس هرباً منه، ولا يكفي بأن يغفل، بل يبني بينه وبين ما يوقظه حواجز، فيتعد عن مواطن الموعظة، أو يسخر من أهلها، أو يغرق نفسه في الضجيج كيلا يسمع الصوت الآتي من أعماقه.

والتجنب يكشف أن بعض الإعراض ليس وليد ضعف الدليل، وإنما وليد الخوف من نتائجها؛ لأن الإنسان قد يدرك أن الاعتراف بالحقيقة

سيطالبه بتغيير لا يريده، فيفضّل ألا ينظر إليها طويلاً. إنه لا يسأل دائماً: هل هذا حق؟ بل يسأل في باطنه: ماذا سأخسر إن كان حقاً؟ فإذا وجد أن الحق سيكلفه شهوة ألفها، أو مالاً جمعه من غير وجهه، أو منصباً بناه على الظلم، بدأ عقله يصنع الاعتراضات التي تحمي المصلحة. وهكذا يتحول الذكاء من أداة لاكتشاف الحقيقة إلى محامٍ بارع عن الهوى.

ولأن التجنب فعلٌ يتكرر، فإنه يصنع مع الوقت مسافةً نفسيةً بين الإنسان وبين كل ما يذكره بالله؛ يضيق صدره بالآية قبل أن يتدبرها، وينفر من الناصح قبل أن يسمع حجته، ويشعر أن الحديث عن الموت والحساب اعتداءً على راحته. وليس هذا لأن الذكرى في ذاتها قاسية، بل لأنها تهدد السلام الزائف الذي بناه على النسيان. من يسكن بيتاً متصدعاً قد يغضب ممن يخبره بالشقوق؛ لا لأن الخبر صنعها، بل لأنه اضطره إلى رؤية الخطر الذي كان يؤجل مواجهته.

لماذا وصفته الآية بالأشقى؟

اختارت السورة صيغة التفضيل: ﴿الْأَشْقَى﴾، لتصف من بلغ في الشقاء غايته حتى صار يتجنب سبب نجاته. وهذه ذروة المفارقة؛ فالذكرى تأتيه لتخرجه من الضيق، فيراها عدوًّا، والطريق يُفتح أمامه، فيختار أن يدير له ظهره، والدواء يُقدم إليه، فيحاربه حمايةً للداء. ليس الأشقى هو من

أصابه ألمٌ عابرٌ أو ضاقت عليه الدنيا، فكثيرٌ من أهل البلاء من أسعد الناس بالله، وإنما الأشتى من فقد البوصلة التي تحول الألم إلى معنى، ومن اختار البعد عن ربه حتى لو ازدانت له أسباب العيش.

إن الشقاء في التصور القرآني أعمق من قلة المتاع؛ فقد يمتلك الإنسان ما يحسده الناس عليه، ثم يعيش في داخله وحشةٌ لا تملؤها الأشياء. كلها حصل على مطلوبٍ انطفأت لذته سريعاً فاندفع إلى غيره، وكأن نفسه بئراً تُلقى فيها النعم فلا تمتلئ، لأنه يطلب من المحدود أن يشبع فيه شوقاً لا يسكنه إلا الاتصال بالمطلق. وحين يتجنب الذكرى، يقطع عن نفسه الطريق الوحيد لفهم هذا الجوع، فيظل يفسره بنقص المال أو الشهرة أو السلطة، ويضعف الجرعة من الشيء الذي زاد عطشه أول مرة.

والأشتى لا يصبح كذلك بخطأٍ مفرد يقع فيه ثم يندم، بل حين يحول انخطأً إلى منهج، والإعراض إلى موقف، والتبرير إلى حصن. قد يذنب صاحب الخشية، لكنه حين يُذكر يتألم ويرجع، أما الأشتى فيعيد بناء معاييرهِ حتى لا يعود الذنب ذنباً في نظره، فيستريح من تأنيب الضمير لا بإصلاح الفعل، بل بإفساد الميزان. وهنا ينتقل المرض من السلوك إلى البصيرة، ومن فعلٍ يمكن الإقلاع عنه إلى تصورٍ يدافع عنه ويعيد إنتاجه.

التجنب في زمن الضجيج

لم يعد تجنب الذكرى محتاجاً دائماً إلى إعلان الرفض؛ فقد يستطيع الإنسان أن يدفنها تحت سليل لا ينقطع من الملهيات، وأن يحرم نفسه من لحظة صمتٍ واحدة يسمع فيها سؤال المصير. يفتح عينيه على الضجيج، ويغلقهما عليه، وينقل بين الصور والأخبار والمخادئات لا لأنه يحتاج إليها كلها، بل لأنه يخشى الفراغ الذي قد تظهر فيه نفسه أمامه. إن بعض الانشغال ليس امتلاءً بالحياة، بل هرباً منها، وبعض الترفيه ليس راحةً من العمل، بل مخدرٌ من السؤال.

والصمت في الرؤية الإيمانية ليس انقطاعاً عن العالم، بل مساحةً تستعيد فيها الروح قدرتها على التمييز؛ إذ لا يمكن للإنسان أن يسمع همس ضميره إذا ظل يرفع حوله الأصوات. ومن هنا يحتاج المؤمن إلى خلواتٍ قصيرة يواجه فيها نفسه تحت نظر الله، ويقرأ يومه قبل أن تتراكم أيامه، ويسأل: إلى أين تقودني العادات التي أكرها؟ ماذا تصنع هذه الكلمات في قلبي؟ أي إنسان أكون عليه وأنا مشغول بملاحقة كل شيء؟ إن الذي لا يختار لحظةً يتذكر فيها، قد تصنع له الحياة لحظةً قاسيةً تسقط فيها الملهيات كلها، لكنه لا يضمن أن يجد قلبه مستعداً يومئذ.

النار الكبرى: حين يصير المصير كشفًا للاختيار

تنتقل الآيات من وصف التجنب إلى مآله: ﴿الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى﴾. والنار الكبرى هي نار الآخرة، التي لا تقاس بنار الدنيا مهما اشتد لهيها؛ لأن نار الدنيا محدودةٌ بمادتها وزمانها، ويمكن أن ينتهي ألمها بالموت، أما نار الآخرة فهي من عالم الجزاء الذي لا تحيط عقولنا بحقيقته، وقد وصفها الوحي بما يوقظ الخوف من غير أن يتيح للخيال أن يدعي الإحاطة بكيفيتها.

ووصف النار بـ«الكبرى» يعيد ترتيب مخاوف الإنسان؛ فالمرء يهرب في الدنيا من آلام صغيرةٍ قد توقعه في الألم الأكبر، ويحتمل هوان المعصية كيلا يحتمل مشقة الاستقامة، ويختار رضا الناس خوفاً من أذى محدود، ثم ينسى الموقف الذي لا ينفع فيه تصفيقهم ولا لومهم. إن الخشية الناجبة لا تنكر مخاوف الدنيا، لكنها تضعها داخل الميزان؛ فإذا تعارض خوفان اختارت احتمال الأصغر للنجاة من الأكبر، وإذا تزامنت خسارتان قدمت ما يحفظ الأبد ولو جرح اللحظة.

ومع ذلك لا ينبغي أن يتحول الحديث عن النار إلى مادةٍ للشماتة أو إلى سلاحٍ يشهره المتدين في وجوه الناس متلذذاً بتصور هلاكهم؛ فالذي فهم الوعيد حقاً ارتجف لنفسه، ورق قلبه للخلق، ورأى كل حيٍّ فرصةً للنجاة ما

دام باب التوبة مفتوحاً. إن الأنبياء لم يحملوا رسالاتهم ليكثر أهل النار، بل أرسلوا لينقذوا الناس منها، وكان تحذيرهم صادراً عن رحمة تعرف حجم الخطر، لا عن قسوة تبحث عن ضحايا. وكل خطابٍ عن العذاب يزيد صاحبه كبراً على الناس يحتاج إلى أن يعود فيتذكر أنه لم يملك لنفسه هدايةً ولا ثباتاً إلا بفضل الله.

النار ليست استعارةً نفسيةً فحسب

قد يلس الإنسان في الدنيا آثاراً من العذاب النفسي الذي تصنعه المعصية؛ كالوحشة والقلق وتشتت الضمير، لكن لا يصح اختزال النار الكبرى في هذه الآثار أو تحويلها إلى رمزٍ أدبي محض، فهي حقيقةٌ أخبر الله بها من عالم الغيب، والإيمان بها جزءٌ من تصديق خبره. نعم، قد تكون نار الندم الدنيوي إنذاراً، وقد يحمل الذنب في ذاته نواةً من الألم، لكن نار الآخرة ليست مجرد وصفٍ لحالة نفسية، بل جزاءٌ حقيقي يليق بعدل الله وحكمته، لا نحيط بكيفيته ولا نتجاوز في وصفه ما جاء به الوحي.

وهذا الضبط مهم؛ لأن الإنسان يميل إلى ترويض الغيب حتى يصبح ملائماً لذوقه، فيحوّل ما يهزه إلى استعارة، وما يطالبه بالتغيير إلى فكرة قابلة للتأويل البعيد. غير أن وظيفة الوحي ليست أن يؤكد لنا ما نحب فقط، بل أن يخبرنا بما لا سبيل إلى معرفته إلا من جهته. ومن التسليح الذي بدأت

به السورة أن ننزه الله عن الكذب والعبث، فنأخذ خبره مأخذ اليقين، ولا نجعل حدود خيالنا حدًا لما يمكن أن يكون في الدار الآخرة.

بين نار الدنيا والنار الكبرى

كل نار في الدنيا قابلةٌ للانطفاء، وكل ألم فيها محكومٌ بالأجل، لكن الغفلة تجعل الإنسان يرى المؤقت مطلقًا، فيرتكب ما يهلكه كي يتخلص من وجع كان سيمر. قد يخاف الفقر فيدخل باب الحرام، مع أن الفقر مهما طال ينتهي، بينما تبعة الحرام لا تسقط لمجرد أن صاحبه غادر الدنيا. وقد يخاف كلمة الناس فيظلم بريئًا، وكلماتهم أيام، لكن المظلمة تقف له يوم القيامة. وقد يخشى خسارة علاقةٍ فيتنازل عن دينه وكرامته، مع أن كل علاقةٍ بشرية يطويها الفراق، بينما علاقته بالله هي التي تحدد مصيره بعد كل فراق.

فن حكمة الإيمان بالوعيد أنه يوسع الزمن الأخلاقي للقرار، فلا يعود الإنسان يحكم على الفعل من مكسبه اللحظي، بل يراه ممتدًا إلى حيث تظهر حقيقته الكاملة. وهذا الامتداد لا يجعل المؤمن عاجزًا عن الفرح، بل يجعله أقدر على اختيار الفرح الذي لا يعقبه ندم، وعلى رفض اللذة التي تخفي في آخرها نارًا. فالحلل ليس حرمانًا من الحياة، بل حمايةً لجمالها من أن يتحول

إلى غنائٍ في الضمير، والطاعة ليست قيداً على الحرية، بل إنقاذاً لها من أن تصبح خادمةً لزوجة تملك اللحظة وتسرق المستقبل.

لا موتٌ يريح ولا حياةٌ تُعاش

ثم ترسم السورة حالاً تهتز لها النفس: ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾. فالإنسان في الدنيا إذا بلغ به الألم غايته رأى في الموت نهايةً لمعاناته، أما في هذا المصير فلا يأتي الموت فيضع حداً للعذاب، ولا تتحقق حياةٌ تحمل معنى الحياة من راحةٍ وكرامةٍ وأملٍ وتجدد. إنه وجودٌ مستمر فقد خصائص الحياة التي تستحق أن تُطلب، وحُرْمٌ في الوقت نفسه النهاية التي يتطلع إليها المتألم.

والآية لا تقول فقط إنه يُعذَّب، بل تنفي عنه قطبي الخلاص اللذين يعرفهما الإنسان: لا موت يقطع الألم، ولا حياة تفتح أفقاً جديداً. إنها منطقة الجزاء التي أفضى إليها من أمضى حياته يرفض الذكرى، فكأن من أعرض عن الحياة الحقيقية في الدنيا يكشف له في الآخرة شكل الوجود حين ينفصل عن كل معنى للنجاة. لقد كان يستطيع أن يموت عن هواه فيحيا قلبه، لكنه أبى إلا أن يحيا هواه حتى أَمَات بصيرته، فإذا به يصل إلى موضع لا يموت فيه ولا يحيا.

وفي هذا التعبير ما يجعلنا نراجع مفهوم الحياة نفسه؛ فليست كل حركة حياة، ولا كل بقاء فلاحاً. قد يمشي الإنسان في الأسواق، ويأكل ويعمل ويتحدث، بينما ماتت فيه القدرة على الدهشة والرحمة والرجوع، فتحولت أيامه إلى تكرارٍ لا يحمل نواً. وهذه الحال الدنيوية ليست هي المعنى الغيبي الكامل للآية، لكنها ظلٌّ يحذرنا من أن الحياة تُقاس بنوعية الصلة بالله والمعنى، لا بمجرد استمرار النبض. كم من قلبٍ حيٍّ بالله في جسدٍ أثقله المرض، وكم من جسدٍ قويٍ تحمل صاحبه الشهوات من باب إلى باب بينما روحه خراب.

العذاب الذي لا يصنع توبةً

في الدنيا يكون الألم فرصةً للمراجعة، لأن أبواب العمل ما تزال مفتوحة، أما في الآخرة فقد انتهى زمن التكليف وجاء زمن الجزاء. هناك لا يتحول الاعتراف المتأخر إلى توبةٍ تنشئ مصيراً جديداً، لأن التوبة ليست نطقاً بالحقيقة بعد أن تصبح مشاهدةً لا يمكن إنكارها، بل اختياراً لها في زمن الحجاب، حين يستطيع الإنسان أن يعرض ثم يختار أن يؤمن ويرجع. قيمة الإيمان الأخلاقية تتجلى في أنه موقفٌ حر أمام الغيب، لا استسلامٌ قهري بعد زوال كل إمكان للإنكار.

ولهذا كان التذكير في الدنيا رحمةً لا ينبغي تأجيل الاستجابة لها؛ فكل يوم يمر لا يسلب من العمر زمناً فقط، بل يغير قابلية القلب. قد يقول الإنسان: سأتوب حين أكبر، لكنه لا يضمن أن تبقى فيه النفس التي تريد التوبة؛ فالاختيارات تترك آثارها، والتسوية نفسه تدريب على عدم الاستجابة. وليس الخطر أن يأتي الموت قبل الموعد الذي اخترعه فحسب، بل أن يأتي ذلك الموعد وقد صار القلب أقل قدرةً على الرجوع، لأن ما كان خيطاً من الهوى أصبح حبلاً، وما كان عادةً قابلةً للكسر أصبح جزءاً من تعريف الإنسان لنفسه.

الانقلاب من الوعيد إلى الفلاح

بعد هذا المشهد المهيّب تنتقل السورة انتقالاً يفتح نافذة النجاة: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾. «قد» هنا للتحقيق، وكأن الفلاح قد ثبت واستقر لمن سلك طريق التزكية، مهما بدت حياته في أعين الناس قليلة الحظ. والقرآن لا يترك الإنسان واقفاً أمام النار بلا خريطة للخلاص، بل يده على طريق واضح يبدأ من الداخل؛ فالهلاك بدأ بتجنب الذكري، والنجاة تبدأ بتطهير النفس حتى تصبح صالحةً لاستقبالها.

والفلاح كلمةٌ أوسع من النجاح؛ فالنجاح في الاستعمال البشري قد يكون بلوغ هدفٍ محدود ولو كان الهدف نفسه فاسداً، وقد ينجح المحتال في

خداع الناس، وبنجح الطاغية في توسيع سلطانه، وبنجح التاجر في مضاعفة ربحه من طريق يهلك ضميره، أما الفلاح فلا يكون إلا خيراً شاملاً ينجو فيه الإنسان مما يخاف ويدرك ما يرجو، وتثمر فيه حياته ثمرةً تتجاوز الموت. إنه نجح في اختيار الغاية قبل النجاح في الوسيلة، وسلامةً للروح لا مجرد بريق للصورة.

وقد يصف الناس إنساناً بالفشل لأنه خسر موقعاً حين رفض الظلم، بينما يصفه القرآن بالفلاح لأنه حفظ نفسه، وقد يرون آخر ناجحاً لأنه جمع ثروةً من أبواب مشتبهة، بينما يحمل في داخله بذور الشقاء. إن الفرق بين الميزانين أن الناس يرون مقطعاً من القصة، أما الوحي فيزينها بنهايتها؛ يرى المرعى وغشاه، والدنيا وآخرتها، والفعل وأثره حين ينكشف الجهر وما يخفى.

التزكية: تطهير وإثراء

التزكية تحمل في أصل معناها دلالاتي التطهير والإثراء؛ فليست مجرد إزالة للأوساخ الأخلاقية، بل تنميةً لجوانب الخير حتى تبلغ النفس ما أودع الله فيها من قابلية للعبودية والرحمة والعدل. وقد يخطئ من يتصور التربية الروحية عملية قمع مستمر للرغبات بلا بناءٍ لبدائلها؛ فالنفس إذا أُفرغت من عادة سيئة ولم تُملأ بمعنى صالح عادت إلى فراغها أو التمسست قيئاً جديداً.

التزكية تقتلع الكبر وتزرع التواضع، تخرج الحسد وتغرس الرضا، تعالج الرياء وتغني الإخلاص، تضيق مساحة الأنانية وتوسع القدرة على البذل.

وهي عمليةٌ طويلةٌ لأن النفس ليست طبقةً واحدة؛ قد يتخلل الإنسان عن صورة الذنب ويبقى تعلقه الباطني به، وقد يفعل الخير لكن يفسده طلب المنزلة، وقد يتواضع بلسانه وهو ينتظر أن يمدحه الناس على تواضعه. لذلك تحتاج التزكية إلى بصيرةٍ لا تكتفي بمراقبة الظاهر، وإلى صدقٍ يسمح للإنسان بأن يعترف بما يجده في داخله من غير تجمل ولا يأس. فمعرفة الداء ليست فضيحةً إذا صارت بداية العلاج، وإنما الفضيحة الحقيقية أن يحرس الإنسان مرضه بقناع الفضيلة.

والتزكية ليست ادعاء الطهارة؛ فمن أخطر أمراض النفس أن نتوهم أنها تزكّت، فنتعالى على الآخرين باسم صلاحها. إن الله نهى عن تزكية النفس بمعنى مدحها وادعاء طهارتها، بينما أثنى هنا على من تزكى بمعنى سعى في تطهيرها؛ والفرق عظيم بين من يعمل على إصلاح نفسه، ومن يعلن اكتمالها. الأول كلما تقدم ازداد معرفةً بعيوبه وافتقاراً إلى ربه، والثاني كلما ظن نفسه صالحاً ازداد عُمى عن الكبر الذي يأكل صلاحه.

من الذي يزكي النفس؟

الإنسان مأمورٌ بالمجاهدة، لكنه لا يملك تزكية نفسه استقلالاً؛ فالله هو الموفق والمطهر، والعبد يطرق الباب بالصدق والتوبة والعمل. وهذا التوازن يحميه من اتكالين متقابلين: أن يترك المجاهدة منتظراً صلاحاً ينزل عليه بلا سبب، أو أن يعجب بجهدِهِ حتى يظن أنه صنع طهارته بنفسه. إنه يغلق أبواب الفتنة، ويختار الصحبة التي تعينه، ويحمل نفسه على الطاعة، ثم يعلم أن لحظة الانتصار على الهوى فضلٌ من الله يستوجب الشكر لا التعالي.

وقد تكون أول التزكية أن يعترف الإنسان بعجزه عن تزكية نفسه؛ فما دام يتوهم أنه قادرٌ وحده، سيظل يدور حول قوته المحدودة، أما حين يصدق في الافتقار يفتح الله له أبواباً لم تكن في حسابه. كم من عادةٍ قاومها صاحبها بإرادةٍ متقطعة، فلما جمع إلى الأسباب دعاءً صادقاً واستعانةً ومحاسبةً وجد أن الله أخرجه من ضعفه قوة. ليست العبودية إلغاءً للإرادة، بل وصلٌ لها بمصدر العون.

تزكية الاعتقاد والنية والعمل

لا تقتصر التزكية على السلوك الظاهر؛ فهي تبدأ بتطهير الاعتقاد من الشرك والوهم، ثم تطهير النية من الرياء والالتفات إلى الخلق، ثم تطهير العمل من الظلم والفحش والتعدي. وقد يؤدي الإنسان أفعالاً مذبذبةً

اجتماعياً، لكنه يبنها على مركية الذات، فيحسن إلى الناس لأنه يحتاج إلى صورتهم عنه، فإذا لم يشكروه تحولت حسناته إلى غضب. والتزكية العميقة تحرر الخير من كونه صفقة لشراء الثناء، وتجعله استجابةً لله، فيبقى الإنسان محسناً حتى حين لا يرى إحسانه.

وتزكية الفكر لا تقل أهمية عن تزكية السلوك؛ فالعقل قد يمتلئ بسوء الظن، والتعميم، والتعصب، واحتكار الصواب، ثم يتوهم صاحبه أن فساده كله محصور في شهوات الجسد. وقد يكون كبر الفكرة أشد حجاباً من لذة عابرة، لأن صاحب الشهوة يعرف أحياناً أنه مذنب فيتوب، أما المتكبر برأيه فيرى تعاليه فضيلة، ويصعب علاجه لأنه جعل المرض طبيئاً. ومن التزكية أن يتعلم الإنسان التفريق بين الحق الذي يدافع عنه ونفسه التي تريد الانتصار، وأن يفرح بظهور الصواب ولو ظهر على لسان خصمه، وأن يراجع موقفه من غير أن يعد المراجعة هزيمة لكرامته.

التزكية ليست عزلةً عن المجتمع

قد تُفهم التزكية فهمًا فردياً ضيقاً، كأنها انشغال الإنسان بصفاء مشاعره بعيداً عن حقوق الناس، لكن النفس لا تتزكى وهي تأكل أموال الآخرين أو تصمت عن ظلمهم أو تستعمل العبادة لتعويض فساد المعاملة. إن الصلاة التي لا تمنع صاحبها من الخيانة تحتاج إلى أن تستعيد روحها،

والذكر الذي لا يرقق القلب للضعيف ما زال على اللسان ولم يبلغ موضع التحول. التزكية القرآنية تصل الداخل بالخارج؛ تطهر النية ليصح العمل، وتطهر العمل ليشهد للنية، وتجعل الصلة بالله مصدراً للعدل مع خلقه.

بل إن المجتمع نفسه يحتاج إلى تزكيةٍ من أنظمة الظلم وثقافة الكذب وتقديس الأشخاص؛ فكما تنضخم «الأنا» في الفرد، قد تنضخم في جماعة ترى نفسها فوق النقد، أو في سلطةٍ تظن أن بقاءها يبرر كل شيء، أو في ثقافةٍ تجدد القوة ولو انفصلت عن الحق. وتزكية الجماعة تبدأ حين تضع مبادئها فوق مصالح قادتها، وتعترف بأخطائها، وتحفظ كرامة الضعيف، ولا تحول الانتفاء إلى وثنٍ يمنح أبناءها البراءة مهما فعلوا، ويجرد الآخرين من العدالة مهما أصابوا.

«وذكر اسم ربه»: ملء القلب بعد تطهيره

بعد التزكية تأتي الآية: ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾. وليس ترتيب الذكر بعد التزكية انفصلاً زمنياً صارماً، فالذكر نفسه من أعظم وسائل التزكية، وإنما هو تصوير لبناء متكامل: تخليّة من المفسدات، ثم امتلاءً بحضور الرب. فالنفس لا تحتمل الفراغ طويلاً؛ إذا أخرجت منها حباً فاسداً ولم تملأها بحبة الله بحثت عن معبودٍ آخر، وإذا زعت منها تعلقاً بالدنيا ولم تمنحها غايةً

أبقى تحولت إلى برودةٍ لا زهد، وإذا منعتهَا من لذة محرمة ولم تذوقها حلاوة
القرب ظلت تنظر إلى الطاعة كأنها حرمان.

والذكر ليس ترديد اسم الله بلسانٍ غائبٍ فحسب، مع أن ذكر اللسان
باب عظيم، بل هو حضور المعنى الذي يعيد ترتيب القرار. أنت تذكر أن
الله يراك فتعدل، وتذكر أنه يرزقك فتعف، وتذكر أنه يغفر فتتوب، وتذكر
أنه الأعلى فلا تخفي للباطل، وتذكر أن الآخرة خيرٌ وأبقى فلا تتبعها بمرعى
زائل. كل طاعةٍ صادقة وراءها ذكر، وكل معصيةٍ وراءها لحظة نسيان؛
فلو حضر في القلب كمال الحضور من نعصي، وما الذي نخسره، ومن الذي
يعلم الجهر وما يخفي، لضائق مساحة الاندفاع نحو الذنب.

وقوله: ﴿اسْمَ رَبِّهِ﴾ يعيدنا إلى فاتحة السورة: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ
الْأَعْلَى﴾. بدأت الرحلة بتسبيح اسم الرب، ثم جاء الفلاح بذكر اسم الرب؛
وكان السورة تحيط الطريق كله بالاسم الإلهي: تنزيه في البداية، وذكر في
مسار التزكية، فلا إصلاح للنفس إذا انقطعت عن معرفة ربها. الأخلاق
في التصور الإيماني لا تطفو في الفراغ، بل تتجذر في العبودية؛ أعدل لأن الله
يحب العدل، وأرحم لأنني أرجو رحمته، وأتذكر لأنني سألقاه، وأذكره
لأنني بدونه أفقد المركز الذي تنتظم حوله حياتي.

الذكر بوصفه مقاومةً للنسيان

سُمي الإنسان إنساناً، وهو كائنٌ يعرض له النسيان؛ يوقن اليوم ثم تغطي يقينه تفاصيل الغد، ويتأثر بالموعظة ثم تعيده العادة إلى مساره القديم. ومن هنا لم يكن الذكر نافلةً هامشيةً، بل ضرورةً لحفظ المعنى من التآكل. إن الحقيقة التي لا تتكرر على القلب تبهت أمام الأشياء التي تتكرر على العين؛ والدنيا تعرض نفسها علينا كل لحظة، في الإعلانات والخاوف والرغبات والحاجات، أما الآخرة فهي غيب تحتاج إلى ذكرٍ يحدد حضورها حتى لا تغيب عن القرار.

والذكر يعيد ضبط البوصلة في أثناء السير؛ فالإنسان قد يبدأ العمل لله، ثم تسلل إليه نظرات الناس، ويبدأ طلب العلم للحق، ثم يتحول إلى منافسةٍ على الظهور، ويبدأ مشروعه لخدمة معنى، ثم يستولي المشروع على قلبه حتى يصبح بقاءه أهم من صدق المعنى نفسه. ولا يكتشف هذه التحولات إلا من يكثر الرجوع إلى ربه، فيعرض قلبه عليه، ويسأل: لمن أفعل الآن؟ ماذا لو لم يرني أحد؟ هل سأبقى على هذا الموقف لو خسرتُ بسببه صورتي؟ إن الذكر ليس هروباً من العمل، بل وقفةٌ تمنع العمل من أن يتحول إلى صنم.

من الذكر إلى الصلاة

تأتي الفاء في قوله: ﴿فَصَلِّ﴾ لتكشف أن الذكر الصادق يطلب صورةً عمليةً يتجسد فيها؛ فليس حضور الله في القلب شعوراً مبهماً بلا تكليف، وإنما يقود إلى الوقوف بين يديه. والصلاة ذروة الذكر لأنها تجمع اللسان والقلب والجسد والزمان والقبلة في فعل عبودية واحد؛ يستقبل الإنسان ربه بكليته، يترك ما في يده، ويطوي للحظاتٍ ضحيح العالم، ويعلن أن كل شيء يمكن تأجيله حين ينادي الأعلى.

إن انتقال الآية من الذكر إلى الصلاة يمنع الروحانية من أن تصبح دعوى بلا نظام؛ فقد يقول الإنسان إن قلبه عامرٌ بحب الله ولا يرى حاجةً إلى الوقوف بين يديه، لكن المحبة التي لا تستجيب للدعاء تظل ادعاءً يختبره الفعل. الصلاة ليست عبثاً خارجياً على الروح، بل الشكل الذي علّها الله أن تعبر به عن عبوديتها؛ وفيها ينحني الجسد للمعنى الذي آمن به القلب، حتى لا يبقى التوحيد فكرةً عاليةً تعيش فوق السلوك.

وقد ذكر أهل التفسير في الآية قولاً يتعلق بالتزكي بركاة الفطر وذكر الله ثم صلاة العيد، وهو معنى مرويٌّ في دائرة دلالتها، غير أن لفظ الآيات يحمل كذلك المعنى العام الجامع للفلاح: تطهير النفس، وذكر الرب، وإقامة الصلاة. ولا تعارض بين تنزيل المعنى على صورةٍ مخصوصة وبين امتداد

هدايته إلى أصل التزكية والذكر والصلاة؛ فالقرآن يجمع في عبارته المحكمة بين الواقعة التعبدية وبين القانون الروحي الذي يتجدد في حياة المؤمن.

الصلاة وإعادة ترتيب الزمن

تدخل الصلاة على يوم الإنسان فتقطع استرسال الدنيا في وعيه؛ فكلمها أو شك العمل أن يقنعه بأنه غاية الوجود، ناداه الأذان ليقول إن فوق السوق ربًّا، وفوق الموعد موعدًا، وفوق الخلق خالقًا. خمس مرات يعود الجسد إلى القبلة، لا لأن الله يحتاج إلى حركته، بل لأن الإنسان يحتاج إلى أن يُنتشل مرارًا من التيه. إن الدنيا لا تستولي على القلب غالبًا بقرار واحد، بل بتراكم الانشغال، والصلاة تقاوم هذا التراكم بتجديد العهد.

حين يكبر المصلي يقول: «الله أكبر»، فلا يصف الله بكبيرٍ يضاف إلى أحجام الأشياء، بل يعلن أن الله أعظم من كل ما شغله واستولى على انتباهه؛ أعظم من الريح الذي يطارده، ومن الخسارة التي يخشاها، ومن الخصم الذي أفلقه، ومن الجرح الذي ظنه العالم كله. فإذا صدقت التكبيرة، دخل الأشياء إلى الصلاة وهي ضئيلة وخرجت وقد عادت إلى أحجامها الصحيحة. ليس لأن المشكلات اختفت، بل لأن القلب لم يعد يراها منفصلةً عن ربه الأعلى.

وفي الركوع والسجود نتعلم النفس أن ارتفاعها لا يكون برفض العبودية، بل بتحقيقها؛ فأقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، لأن الجبهة التي يرفعها الكبر فوق الناس تضع نفسها لله على الأرض، فتتحرر من الحاجة إلى إثبات علوها. وما أعجب أن يكون السجود، وهو أخفض هيئة للجسد، أعلى مقام للروح؛ كأن القرآن يربي الإنسان على أن العلو الحقيقي ليس في أن تتكبر الذات، بل في أن تتصل بالأعلى.

الصلاة التي تصنع الإنسان خارجها

ليست قيمة الصلاة في المحطات التي تستغرقها فقط، بل في الإنسان الذي يخرج منها؛ فإذا لم تترك أثراً في الصدق والرحمة والعفة والعدل، كان الخلل في إقامة الصلاة لا في الصلاة نفسها. قد يؤدي الجسد الحركات، بينما يظل القلب خارج الموعد، وقد يقرأ اللسان القرآن، بينما تعبر المعاني من غير أن تمس مركز القرار. ولذلك تحتاج الصلاة نفسها إلى تزكية؛ من العجلة، والرياء، والاعتیاد الذي يفرغ الكلمات من حضورها.

والخشوع ليس انفعالاً ثابتاً يملكه بعض الناس ويحرم منه آخرون، بل ثمرة معرفة ومجاهدة واستعداد؛ يبدأ قبل التكبير حين يترك المصلي فضول الانشغال، ويغو بفهم ما يتلو، ويقوى كلما صدق في ربط الصلاة بحياته. من قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ثم رأى نفسه بعد السلام تتبع الحق خوفاً من

مخلوق، ينبغي أن يعود إلى الكلمة لا ليكرر صوتها فحسب، بل ليحرر معناها في سلوكه. ومن سجد لله ثم تكبر على الناس، لم يسمح للسجود أن يبلغ كبرياءه.

والصلاة التي يريدّها القرآن ليست محطةً يهرب فيها الإنسان من مسؤولياته، بل موردًا يعود منه أقوى على حملها. يصلي ثم يخرج إلى العالم أكثر عدلاً لأن الله أمره، وأكثر رحمةً لأنه ذاق الافتقار، وأقل هلعاً لأن رزقه بيد من صلى له، وأشد مقاومةً للباطل لأن جبهته لم تسجد إلا لله. وبهذا تصبح الصلاة فعلاً حضارياً في أعماق معانيه؛ فهي تصنع إنساناً لا تستعبده المادة، ولا تبتلعها السلطة، ولا يسرقه الإيقاع السريع من السؤال عن الغاية.

ثلاثية الفلاح: تزكية وذكر وصلاة

ترسم الآيتان منهجاً متكاملًا للفلاح: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ وذكر **اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى**. التزكية تعالج مادة النفس، والذكر يحدد مركزها، والصلاة تنظم حركتها؛ فإذا انفصل واحدٌ منها عن الآخر ظهر الخلل. تزكيةٌ بلا ذكر قد تتحول إلى تهذيبٍ بشري غايته تحسين الصورة، وذكرٌ بلا تزكية قد يصبح ألفاظاً تتعائش مع أدواء القلب، وصلاةٌ بلا حضور للذكر

قد تصبح عادةً جسدية، وادعاء تزكية بلا صلاة يناقض الطريق الذي شرعه الله.

أما اجتماعها فيبني الإنسان من داخله إلى خارجه: يطهر نفسه من المفسدات، ثم يملؤها بمعرفة الرب، ثم يقيم صلته به في العبادة. وهذه الحركة لا تتم مرةً واحدة؛ فكل صلاة تعيد فتح باب التزكية، وكل ذكر يكشف طبقةً جديدة من الغفلة، وكل مجاهدة تجعل الصلاة أصدق. إن الطريق دائريٌّ صاعد: تتزكى فتذكر، وتذكر فتصلي، وتصلي فتزداد قدرةً على التزكي، حتى تنمو الروح لا في خط مستقيم خالٍ من التعثر، بل في عودة متكررة إلى الله كلها أبعدتها نفسها.

بين «الأشقي» و«قد أفلح»

في طرف الصورة إنسانٌ يتجنب الذكرى فيصلى النار الكبرى، وفي طرفها الآخر إنسانٌ يتزكى ويذكر ويصلي فيفلح. وليس الفارق أن الثاني لم يخطئ قط، بل أنه لم يجعل خطأه مذهباً، ولم يتجنب ما يوقظه، ولم يحرم عيوبه من نور الذكرى. قد يسقط صاحب الفلاح، لكنه يحمل في قلبه خشيةً تجعله يقوم، بينما يتقدم الأشقي في سقوطه لأنه أقنع نفسه أن الهاوية طريق.

إن باب الفلاح مفتوحٌ بالفعل المضارع المتجدد: ﴿تَزَكَّى﴾؛ فن بدأ اليوم في تطهير نفسه دخل الطريق، ولو تراكم عليه غبار السنين. لا يطالبه القرآن أن يقدم ماضياً بلا خطايا، وإنما يطالبه بحاضرٍ صادق في العودة، ولا يشترط أن يصبح كاملاً في لحظة، بل أن يغير وجهته. فالسفينة قد تكون بعيدةً عن الميناء، لكن لحظة تصحيح مسارها تختلف عن استمرارها في الاتجاه المضاد؛ والإنسان لا يُقاس فقط بمكانه الحالي، بل بالجهة التي يمضي إليها.

وفي المقابل لا ينبغي لصاحب الطاعة أن يأمن على نفسه لأنه يقف في موضع حسن اليوم؛ فإدام القلب يتقلب، تظل حاجته إلى التذكير والتزكية قائمة. وقد يحمل المطيع في داخله بذرة كبير تجعله يحتقر العاصي، فتكون هذه البذرة أخطر عليه من خطيئة ظاهرة يبكي صاحبها منها. إن الفلاح ليس وساماً يعلقه الإنسان على صدره، بل عنايةٌ يرجو دوامها، وطريقٌ يسأل الله الثبات عليه حتى يلقاه.

سيكولوجية الاستجابة والإعراض

تكشف هذه الآيات أن الموقف من الحق لا يتكون في العقل وحده؛ فالخشية، والشقاء، والتزكية، والذكر، كلها أحوالٌ تتفاعل فيها المعرفة مع الإرادة والوجدان. قد تقوم الحجة واضحة، لكن النفس ترفض نتائجها، وقد

تكون العبارة موجزة، لكن قلباً صادقاً يلتقط منها ما يغير عمره. ومن هنا لا يكفي لإصلاح الإنسان أن نملأ ذهنه بالمعلومات، بل ينبغي أن نربي فيه شجاعة مواجهة ذاته، وقدرة التضحية بالمصلحة حين تخالف الحق، وخشية تحرره من مراوغات الهوى.

وما أكثر الذين يعرفون أضرار سلوكهم ثم يواصلونه، لا لأن البيان ناقص، بل لأن المعرفة لم تتحول إلى قوة أخلاقية. إن العقل يرسم الطريق، لكن الإرادة تحتاج إلى ما يجعلها تسلكه، والقلب يحتاج إلى غايةٍ يحبها أكثر من العادة التي يقاومها. لهذا ربط القرآن الفلاح بذكر الرب؛ فالإصلاح لا ينجح طويلاً إذا بُني على كراهية الذات وحدها، وإنما يحتاج إلى محبةٍ أعلى تجذب النفس، ورجاءٍ يفتح لها المستقبل، ومعنى يجعل التضحية قابلةً للاحتمال.

النجاح الذي لا يرى كاملاً في الدنيا

قد يتزكى الإنسان ويذكر ويصلي، ثم لا يرى في دنياه كل الثمار التي توقعها؛ ربما يبقى مبتلى، أو تضيق عليه الأسباب، أو لا يعرف الناس قدره. لكن السورة تقول: ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾ بصيغة التحقيق، لأن الفلاح لا يتوقف على اعتراف العالم به، ولا تكتمل صورته داخل حدود الدنيا. إن من استعاد قلبه من الشهوة، وحفظ ضميره من البيع، وبقي متصلاً بربه، قد

حقق نجاحاً لا تستطيع مؤشرات الأرض قياسه، وإن مات مجهولاً قليل المال.

وهذا لا يعني أن الفلاح لا يترك أثراً دنيوياً؛ فالتزكية تمنح النفس توازناً، والذكر يمنحها سكينه، والصلاة تعيد تنظيم وقتها ووجهتها، لكن هذه الثمار ليست دائماً رخاءً مادياً أو انتصاراً سريعاً. قد يكون أثر الإيمان أن يمنح الإنسان قوةً على احتمال البلاء لا أن يلغي البلاء، وبصيرةً تحسن استخدام القليل لا أن تمنحه الكثير، وحريةً داخليةً تحفظه من الذل ولو كان محاصراً. إن الدنيا تقدم للفائز جوائز من جنسها، أما الله فيمنح المفلح حياةً من جنس روحه، ثم يدخر له تمام الجزاء حيث لا يلحق النعمة زوال.

لماذا يخرف الإنسان بعد وضوح الطريق؟

بعد أن عرضت السورة طريق الفلاح بهذه البساطة المهيبة — تزكية، وذكر، وصلاة — يبقى السؤال: لماذا يختار الإنسان طريق الشقاء مع أن باب النجاة واضح؟ لماذا يتجنب الذكرى مع أنها تريد إنقاذه؟ لماذا يبيع الأعلى بالأدنى، والباقي بالزائل؟

سيأتي الجواب في الآية التالية كاشفاً الجذر العميق لكثيرٍ من الانحرافات: ليست المشكلة أن الآخرة أقل خيراً، بل أن الدنيا أقرب إلى الحس؛ يراها الإنسان ويلبس لذتها، فتستولي العجلة على ميزانه، ويؤثر

الحاضر الصغير على المستقبل العظيم. إن أزمة الإنسان في كثير من الأحيان ليست جهلاً بالمفاضلة، بل فساداً في إرادة الاختيار، يعرف ما هو خير، لكنه يؤثر ما هو أقرب.

وهنا تفتح السورة على فصلها الأخير، حيث تضع الوجود كله في كفتي ميزان: دنیا تُؤثّر لأنها حاضرة، وآخرةٌ هي خيرٌ وأبقى، ثم تكشف أن هذا الميزان ليس جديداً في تاريخ النبوة، بل هو حقيقةٌ جرت بها الصحف الأولى، وتوحدت حولها رسالات السماء:

﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾

الفصل الرابع

فَلَسَفَةُ الوجودِ وَالِامتدادُ الرِّسَالِيُّ

الآيات من السادسة عشرة إلى التاسعة عشرة

قال الله تعالى:

﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ۖ إِنَّ هَذَا لَفِي
الصُّحُفِ الْأُولَى ۖ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ۖ﴾

«بل»: الكلمة التي تكشف موضع العلة

بعد أن عرضت السورة طريق الفلاح في وضوح بالغ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ
تَزَكَّى ۖ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ۖ﴾، تنتقل فجأة إلى تشخيص العلة التي
تصرف الإنسان عن هذا الطريق، فتقول: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۖ﴾.
و«بل» هنا ليست مجرد أداة انتقال لغوي، بل كأنها يدٌ تزج ستار التبريرات
عن القلب، لتكشف السبب الذي يختبئ خلف كثير من الاعتراض
والتسويق والإعراض؛ فالمشكلة ليست دائماً أن الدليل لم يبلغ، ولا أن
طريق الفلاح غامض، ولا أن الإنسان عاجزٌ عن التمييز بين الخير والشر، بل

إنه قد يعرف ثم يؤثر، ويصير ثم يختار أن يغض طرفه، ويوقن بأن طريقاً أعلى ينتظره ثم يبيع يقينه للمنفعة الأقرب.

إن لفظ ﴿تُؤَثِّرُونَ﴾ ينقل القضية من دائرة الجهل إلى دائرة الاختيار، فالإيثار لا يقع إلا بين شيئين حضرا في الوعي بدرجةٍ ما، ثم قُدِّم أحدهما على الآخر. وهذا من أشد ما يكشف مسؤولية الإنسان؛ لأنه لا يضل دائماً في ظلامٍ كامل، بل قد يضل في وضخ الحقيقة حين يحب ما يخالفها أكثر مما يحبها. يعرف أن الصدق أنجي، لكنه يؤثر مكسب الكذب، ويعرف أن العدل أكرم، لكنه يؤثر ولاء الجماعة، ويعرف أن العفو أطهر، لكنه يؤثر لذة الانتقام، ويعرف أن الصلاة حياة القلب، لكنه يؤثر راحة الجسد العاجلة، ويعرف أن ما عند الله أبقي، لكنه يعامل ما في يده كأنه ضمان الخلود.

وهنا تضع السورة يدها على المسافة الدقيقة بين المعرفة والهداية؛ فالمعرفة وحدها لا تكفي ما لم تتحول إلى محبة وإرادةٍ وترتيبٍ للأولويات. قد يعرف المريض ضرر ما يتناوله ثم يمد يده إليه، وقد يعرف المبذر أن ما يفعله سيورثه الندم ثم تدفعه لذة اللحظة إلى الاستمرار؛ فالفكر يستطيع أن يضيء الطريق، لكنه يحتاج إلى قلبٍ يقدر النور، وإرادةٍ تتحمل كلفة السير. ولذلك لم تقل السورة: «قد أفلح من علم» فحسب، بل ربطت الفلاح بالتزكية

والذكر والصلاة؛ لأن التزكية تعالج مركز الاختيار، والذكر يبقى الغاية حاضرة، والصلاة تدرب النفس على تقديم أمر الله على نداء اللحظة.

الدنيا القريبة وسلطان الحاضر

سُمِّيت الدنيا دنيا لدنوها وقربها، ولأنها أدنى إذا قيسَت بالدار الباقية؛ فهي الحاضرة التي تتصل بالحواس، ويستطيع الإنسان أن يلبس أرباحها ويتذوق لذاتها ويرى زينتها، أما الآخرة فغيبٌ يرى بنور الإيمان قبل أن يُرى بالبصر. ومن هنا ينشأ تفاوتٌ في الضغط النفسي بين العاجل والآجل؛ فاللذة الحاضرة تصرخ في الجسد، بينما تأتي ثمرة الصبر من المستقبل، والمكسب القريب يلع أمام العين، بينما يقيم جزاء التضحية وراء حجاب الغيب. فإذا لم يكن في القلب يقينٌ متجدد، غلب المرئي الموعود، لا لأنه أعظم في ذاته، بل لأنه أقرب إلى الحس.

إن الإنسان بطبيعته يميل إلى التعجيل، ويريد أن يقبض الثمرة قبل أن يكتمل موسمها، ولهذا يصبح الإيمان بالآخرة تدريباً عميقاً على تحرير القرار من استبداد اللحظة. فالطفل يختار الحلوى الآن ولو أفسدت صحته غداً، أما النضج فيبدأ حين يستطيع المرء أن يؤخر إشباعاً قريباً من أجل خيرٍ بعيد. والإيمان يبلغ بهذا النضج مداه الأقصى؛ إذ يجعل الإنسان قادراً على أن

يترك ما يراه لما وعده الله به، وأن يتحمل مشقةً محدودةً في زمن قصير طلباً
لنعم لا ينقطع.

ولا يعني هذا أن كل ما هو حاضرٌ مذموم، أو أن كل لذةٍ دنيويةٍ عدوةٌ
للروح؛ فقد خلق الله الطيبات وأباحها، وأمر بالسعي في الأرض، وجعل
في النعم جمالاً يستحق الشكر. وإنما الخلل في أن تتحول الحواس من نوافذ
نرى بها آيات الله إلى جدران تمنعنا من رؤية ما وراءها، وأن يصبح القريب
هو الحقيقي الوحيد، وكأن ما لا تلمسه اليد لا يستحق أن يحكم الاختيار.
الإيمان لا يطلب من الإنسان أن ينكر الحاضر، بل أن يحرره من ادعاء
الكمال، فلا يسمح له بأن يصادر المستقبل الأبدي.

ليست المشكلة في الدنيا بل في إثارتها

الآية لا تقول: «بل تعيشون في الحياة الدنيا»، فالعيش فيها قدر الإنسان
وميدان تكليفه، ولا تقول: «بل تنتفعون بالحياة الدنيا»، فالانتفاع بنعمها من
المباحات التي قد تتحول بالشكر والنية إلى عبادة، وإنما تقول: ﴿تُؤْثِرُونَ﴾؛
أي تجعلونها مقدمةً حين تتعارض مع الآخرة، وتعطونها المرتبة التي لا
تستحقها. إن الدنيا تصبح فتنةً لا لمجرد وجودها، بل حين تختل الموازين في
القلب، فيبيع الإنسان القيمة من أجل المنفعة، ويؤخر رضا الله إلى ما بعد

إرضاء كل رغبته، ثم يكتشف أن الرغبات لا تنتهي وأن التوبة المؤجلة قد لا يأتي موعدها.

فمن عمل في الدنيا ليعمرها بالحق لم يؤثرها على الآخرة، بل جعلها مزرعة لها، ومن طلب المال من حلال لينفق ويحفظ كرامته لم يعبد المال، بل وضعه في وظيفته، ومن أحب أسرته وأحسن إليها فقد سلك إلى الله من باب الرحمة. أما من هدم آخرته ليبني دنياه، واستباح المحرم ليزيد نصيبه، وسكت عن الحق كي يحفظ مكانه، فقد نقل الدنيا من اليد إلى القلب، ومن الوسيلة إلى الغاية، ومن الأمانة إلى السيادة.

إن الزهد الصحيح ليس أن تخلو اليد من الأشياء، بل أن يخلو القلب من عبوديتها؛ فقد يكون الفقير أشد تعلقاً بالدنيا من غنيٍّ شاكر، لأن الزهد لا يقاس بما يملكه الإنسان، بل بما يملكه الشيء منه. قد يسكن المرء بيتاً نفخاً ويبقى مستعداً لتركه إذا تعارض مع الحق، وقد لا يملك آخر إلا قليلاً ثم يبيع دينه ليضاعف هذا القليل. المعيار: أيهما أعلى في لحظة الاختبار؟ أمر الله أم الشيء الذي تحب؟

حين تسكن الدنيا في مركز الوعي

لا تستولي الدنيا على الإنسان دفعةً واحدة، بل تبدأ غالباً بتغيير صغير في اللغة الداخلية؛ يقول لنفسه: هذه المرة فقط، وهذه الضرورة مؤقتة، وحين

تستقر ظروف في سأعود إلى ما أعلم أنه حق. ثم يتكرر الاستثناء حتى يصبح قاعدة، ويتحول التأجيل من ظرفٍ عابرٍ إلى أسلوب حياة. يظل ينتظر يوماً تكون فيه الطاعة بلا تضحية، والصدق بلا خسارة، والتوبة بلا مقاومة، ولا يدرك أن الاختبار كله قائمٌ في المسافة بين وضوح الحق وكلفته.

وحين تتركز الدنيا في الوعي، يعيد الإنسان تفسير كل شيء وفق منفعتها؛ يصبح الصديق الجيد هو من يفيد، والموقف الصائب هو ما يحفظ مكانه، والدين المقبول هو ما لا يزج رغباته، والحقيقة الصحيحة هي ما تؤيد جماعته. لا يعود ينظر إلى الدنيا بعين الوعي، بل ينظر إلى الوعي بعين الدنيا، فيقبل منه ما يمر عبر بوابة المصلحة، ويؤوّل ما يهددها أو يؤجله أو يتجنبه. وهنا يبلغ الإيثار أخطر صورته؛ لأنه لا يظهر في هيئة تمرّد معلن، بل قد يلبس لغةً دينيةً تزين للدنيا استيلاءها.

ومن علامات هذا الاستيلاء أن يصبح فقد الشيء الدنيوي عند الإنسان أعظم من فقد معنى إيماني، يحزن لانخفاض مكانته أكثر مما يحزن لانخفاض صدقه، ويؤلمه أن يسيء الناس فهمه أكثر مما يؤلمه أن يعلم الله من باطنه ما يخالف ظاهره، ويحاسب نفسه على فرصة مالية ضاعت ولا يحاسبها على صلاةٍ ضيعتها. ليست المشكلة أنه شعر بالحزن على مصلحته، فهذا طبيعي، وإنما أن موازين الألم نفسها كشفت ما يحتل المقام الأعلى في قلبه.

الدنيا بوصفها «مرعى»

ينعطف آخر السورة على أولها في وحدةٍ مذهشة؛ فقد عرضت الآيات الأولى مشهد المرعى الذي أخرجه الله أخضر، ثم جعله ﴿غُثَاءً أَحْوَى﴾، وتأتي الآيات الأخيرة لتقول: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾. فكأن المرعى صورة الدنيا الحسية، والإيثار هو الخطأ الذي يقع حين ينهر الإنسان بمرحلة الخضرة وينسى حتمية الغناء. لقد رآها في أوجها ولم يقرأ نهايتها، فبنى على العابر قراراً أبدياً.

والبصيرة ليست أن تنتظر حتى تذبل النعمة لتعرف أنها فانية، بل أن ترى فناءها وهي في أوج جمالها، من غير أن يفسد ذلك قدرتك على شكرها. ترى الطفل صغيراً فتستمع بقربه وأنت تعلم أن الأيام ستغير مراحلها، وترى صحتك فتستعملها في الخير قبل أن يلم بها الضعف، وترى اجتماع الأحبة فتملأه بالمودة قبل أن تفرق بينهم السنون. إن الوعي بالفناء لا يقتل جمال اللحظة، بل ينقذها من الإهمال؛ لأن من يظن النعمة دائمةً يؤجل شكرها، أما من يعرف أنها عابرة فيقبل عليها بأدب المودع، لا بجشع المالك.

والمرعى لا يُذم لأنه يتحول إلى غشاء، فقد أدى وظيفته وكان رزقاً وجمالاً، وإنما الحمق أن يبني الإنسان عليه بيت خلوده. كذلك الدنيا تؤدي وظيفتها حين تكون موضعاً للعمل والتزود، لكنها تتحول إلى خديعة حين

نطلب منها أن تمنحنا أمناً لا يتهدد، وشباباً لا يهرم، وعلاقةً لا تنتهي، وملكاً لا ينتقل. إنها لا تحون الإنسان حين تفنى، فقد أخبره الله منذ البداية بأنها ستفنى، وإنما هو الذي يخون بصيرته حين يصر على معاملتها كأنها باقية.

إِشَارُ الدُّنْيَا فِي صُورٍ لَا تَبْدُو دُنْيَوِيَّةً

ليس إشار الدنیا محصوراً في المال والشهوة، بل قد يتخفى في طلب السمعة الدينية، أو التنافس على منزلة فكرية، أو الانتصار للنفس تحت لافتة الدفاع عن الحق. فقد يترك الإنسان متاعاً مادياً لكنه يتعلق بصورة الزاهد في أعين الناس، ويزهد في المال ليجمع بدلاً منه المريدين والثناء، فيخرج من دنيا إلى دنيا أدق وأخفى. إن الدنيا كل ما شغل عن الله وأصبح غايةً مستقلة، ولو لبس ثوباً روحياً.

وقد يؤثر الكاتب دنياه حين يكتب ما يصفق له الجمهور لا ما يعتقد أنه حق، ويؤثر العالم دنياه حين يخفي من العلم ما يهدد مكاتته، ويؤثر الداعية دنياه حين يجعل بقاء جماعته فوق مبادئ دعوته، ويؤثر صاحب السلطة دنياه حين يقيس الحق بمقدار ما يثبت كرسيه. وليس أخطر من دنيا تختبئ داخل خطاب الآخرة، لأن صاحبها قد يستيقظ من شهوة ظاهرة، لكنه يصعب أن يستيقظ من شهوة أقنع نفسه أنها عبادة.

ولهذا كان قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى﴾ تمهيداً ضرورياً،
فالله يعلم الدنيا الخفية في القلب، كما يعلم الدنيا الظاهرة في اليد. قد يعلن
الإنسان أنه ضحى بكل شيء، بينما يحتفظ في داخله بشهوة أن يرى مضحياً،
وقد يتحدث عن التجرد وهو يريد أن يسكن في وعي الناس. ولا يطهر هذه
المناطق إلا صدقٌ طويل، ودعاء، ومحاسبة لا تخاف اكتشاف الداء.

الإيثار واختلال ميزان الزمن

في جوهر إيثار الدنيا خطأ في فهم الزمن؛ فالإنسان يضخم اللحظة لأنها
حاضرة، ويصغر الأبد لأنه غائب، مع أن حقيقة الأشياء لا تحددها المسافة
التي تفصلنا عنها. قد يكون الجبل بعيداً عن العين فلا نراه إلا نقطة، لكنه
لا يصير صغيراً في ذاته، وقد تكون حشرة قريبة من الوجه فتملأ مجال
البصر، لكنها لا تصبح أكبر من الجبل. وكذلك الدنيا والآخرة؛ اقتربت
الدنيا من الحواس فلأت مجال الرؤية، وغابت الآخرة فبدت في الشعور
الضعيف بعيدة، وجاء الوحي ليصحح خداع المنظور: لا تقس الأشياء
بقربها منك، بل بحقيقتها عند الله.

والإيمان هو القدرة على تجاوز خداع القرب؛ أن ترى نتائج الفعل قبل
ظهورها، وتسمع نداء الأبد وسط ضجيج اللحظة، وتتصرف في القليل الفاني
على ضوء الكثير الباقي. ومن هنا تصبح العبادة تدريباً على الزمن الممتد؛

فالصوم يعلمك أن تؤخر اللذة، والزكاة تعلمك أن ما تبقىهِ حقاً هو ما تقدمه،
والصلاة تجعلك تقتطع من وقت الدنيا موعداً للآخرة، والحج يخرجك من
مألوفك إلى صورةٍ تذكرك بالحشر والوقوف.

أما ثقافة الاستهلاك فتعيش على نقيض ذلك؛ تقول للإنسان: اشتر
الآن، استمتع الآن، لا تؤجل رغبةً ولا تسأل عن أثرها، وقيمة الشيء في
سرعة وصوله إليك. وحين يتشبع الوعي بهذا الإيقاع، تصبح التوبة مؤجلةً
لأنها لا تعطي مكسباً حسيّاً عاجلاً، وتصبح الطاعة ثقيلةً لأنها تطالب
النفس بأن ترى ما وراء اللحظة. إن مقاومة إيثار الدنيا ليست موقفاً وعظيماً
عابراً، بل إعادة تربية للزمن الداخلي، حتى يتعلم الإنسان أن المستقبل
الأخروي ليس أقل واقعيةً لمجرد أنه لم يصل بعد.

«الحياة الدنيا» لا «الدنيا» فقط

سمتها الآية ﴿الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾، لتشير إلى أن ما يغري الإنسان فيها هو
شعوره بأنها الحياة المتاحة الآن؛ يخشى أن تفوته لذتها فيتصور أن الاستقامة
ستنتقص من حظه في الوجود. لكن الوحي لا يحرمه الحياة، بل ينقذه من
تعريفٍ ناقص لها؛ فليست الحياة أن يستهلك الإنسان أكبر قدر من اللذات
قبل موته، وإنما أن يحقق عبوديته ويعمر الأرض بالحق ويستخرج من أيامه
ما يبقى.

قد يعيش المرء سنوات طويلةً ولا يحيا منها إلا لحظات الصدق، وقد تمتلئ أيامه بالحركة بينما لا تتقدم روحه خطوة. الحياة ليست عدد الأنفاس، بل القيمة التي حملتها، وليست كثرة التجارب، بل المعنى الذي جمعها. ومن قدّم حياته لله لم يفقدها، بل أعادها إلى مصدرها حتى نتصل بالبقاء، أما من احتفظ بها لنفسه وحدها فقد تركها نهبا للزمن يأكلها يوماً بعد يوم.

إن الدنيا حين تنفصل عن الآخرة تضيق مهما اتسعت؛ لأن كل إنجاز فيها محكوم بالسؤال: ثم ماذا؟ تجمع المال، ثم ماذا؟ تبلغ المكانة، ثم ماذا؟ ينتشر الاسم، ثم ماذا؟ إذا كان الموت هو الجدار الأخير الذي تتخطى عنده كل الإجابات، تصبح الحياة عبثاً مؤجل الاعتراف. أما الآخرة فتفتح في الجدار باباً، وتجعل العمل الصالح قادراً على عبور الموت، فلا يعود الإنسان يبني فوق رمالٍ تحوها النهاية، بل يرسل من أيامه إلى دار بقاءه.

التقرير الحاسم: الآخرة خير

ثم يأتي الميزان الإلهي: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾. لم يقل القرآن إن الآخرة باقيةٌ فحسب، بل بدأ بالخيرية؛ لأنها ليست مجرد استمرارٍ زمني طويل لحياةٍ من النوع نفسه، بل دارٌ أكل في نعيمها وأصفى من منغصاتها، لا تعب فيها ولا خوف ولا فراق لأهل السعادة. إن البقاء وحده لا يكفي إذا

كان الباقي الماء، ولذلك جمعت الآية بين نوع النعمة وامتدادها: خير في حقيقتها، وأبقى في دوامها.

والتعبير جاء في غاية الإيجاز، لكنه يحسم المفاضلة من أصلها؛ فإذا كان أحد الخيارين خيراً من الآخر وأدوم، فأبي عقلٍ سليم يؤثر الأدنى الألفى إلا إذا حجت الشهوة عنه رؤية الميزان؟ إن الإنسان في معاملاته الدنيوية يختار عادةً السلعة الأجود والأطول عمراً، ويرفض أن يستبدل الكثير بالقليل، لكنه حين يتعلق الأمر بالمصير قد يعكس منطقته كله، فيبادل نعيماً أبدياً بلذة دقائق، ويبيع كرامة الروح بمكسبٍ ينتهي قبل أن يكتمل فرحه به. وهذا دليل على أن أزمة الإيثار ليست نقصاً في القدرة الحسابية، بل استيلاء الهوى على الحساب.

و«خير» لا تعني أن الدنيا خالية من الخير، بل إن خير الآخرة أكل، وما في الدنيا من خيرٍ لمحّة تدل عليه. الرحمة التي نشعر بها هنا معرضةٌ للفقد، والجمال يلاحقه الذبول، واللقاء تهدده المسافة والموت، والطمأنينة تقطعها المخاوف؛ أما خير الآخرة فمصفى من العناصر التي تنغصه. كل فرج دنيوي يحمل في داخله قلق الزوال، حتى إن الإنسان قد يحزن وهو في قلب النعمة لأنه يتخيل فقدانها، أما نعيم الآخرة فلا يطارده هذا الظل؛ لأنه أبقي.

«وأبقى»: شفاء الخوف الإنساني من الفقد

في أعماق تعلق الإنسان بالدنيا خوفٌ من الفقد؛ فهو يجمع لأنه يخشى النقص، ويمسك لأنه يخشى الفراق، ويطلب الخلود في المال والولد والاسم والأثر لأنه يشعر بأن أيامه تتسرب. لكن الأشياء التي يطلب منها حمايته من الفناء واقعةٌ تحت قانون الفناء نفسه؛ فلا يستطيع الفاني أن يمنح فانياً بقاءً. ولهذا تأتي كلمة ﴿وَأَبَقَى﴾ دواءً لهذا الخوف، وتقول للقلب: لا تترك حاجتك إلى البقاء، فقد خلق الله فيك هذا التطلع، ولكن اطلبه في موضعه الصحيح، ولا تعلق رغبتك الأبدية بأشياء قصيرة العمر.

إن الإنسان لا يعذب لأنه يحب البقاء، بل لأنه يطلبه من الدنيا؛ يريد من العلاقة البشرية ألا تتغير، ومن الجسد ألا يهرم، ومن المكانة ألا تنتقل، ومن اللحظة الجميلة ألا تنقضي، ثم يصطدم كل يوم بقانون التحول. والإيمان لا يقتل توقه إلى الدوام، بل يرفعه إلى الدار التي تليق به، ويعلمه أن كل حبٍّ طاهر يمكن أن يتصل بالبقاء إذا صار في الله، وأن كل عملٍ صالح يمكن أن يعبر حدود العمر إذا أخلص صاحبه.

وحين يستقر معنى «أبقى» يكتسب الفقد الديني تفسيراً جديداً؛ فالؤمن يحزن، لأنه إنسان، لكنه لا يرى الموت عدماً مطلقاً، ولا الفراق نهاية القصة. إنه يودع وهو يحمل رجاء اللقاء، ويصبر وهو يعلم أن الله لا

يضيع محبةً طهرت ولا عملاً صالح. وهذه الرؤية لا تلغي الدموع، بل تمنعها من أن تتحول إلى ظلامٍ يغلق الأفق؛ فالذي يبكي تحت سماء الآخرة لا يبكي كما يبكي من يظن أن القبر ابتلع كل شيء..

الآخرة بوصفها معياراً لا مهرباً

قد يُساء فهم مركزية الآخرة كأنها دعوةٌ إلى هجر الواقع وترك الظلم والفقر والفساد يعيش في الأرض، لكن القرآن يجعل الإيمان بالآخرة أعظم مصدرٍ للمسؤولية؛ لأن الإنسان الذي يعلم أنه سيحاسب لا يستطيع أن يعامل الدنيا كمساحة بلا شاهد. من صدق بأن الآخرة خير وأبقى لا يحتقر حقوق الناس بحجة أن العالم فانٍ، بل يصونها لأنه سيلقى الله بها، ولا يترك الأرض خراباً لأنه مستخلفٌ فيها، ولا يهمل جسده وأسرته وعمله لأن كل أمانةٍ ستتحول إلى سؤال.

الفرار من الدنيا إلى الآخرة ليس أن تترك واجبك فيها، بل أن تترك عبوديتك لها؛ تعمل من أجل الحق لا من أجل تأليه النتائج، وتقاوم الظلم وإن لم تضمن مشاهدة النصر، لأن قيمة الموقف محفوظةٌ في الدار الأبدية. ولولم تكن هناك آخرة، لأصبح كثير من تضحيات المظلومين ألغازاً بلا جواب، ولذهب الطغاة الذين أفلتوا من عدالة الأرض إلى العدم كما ذهب ضحاياهم، من غير ميزانٍ نهائي يعيد الحقوق. أما الإيمان بالآخرة فيؤسس

ليقين أن التاريخ ليس المحكمة الأخيرة، وأن الصفحة التي أغلقها البشر على ظلم لم تُغلق في علم الله.

وبذلك تتحول الآخرة من فكرة عن نهاية العالم إلى قوة أخلاقية داخل الحاضر؛ تجعل القاضي أقدر على العدل حين تغريه الرشوة، والحاكم أقدر على التواضع حين تسكره السلطة، والتاجر أقدر على الأمانة حين يمكنه الغش، والإنسان أقدر على العفو حين يملك الانتقام. إن قيمة الإيمان بالغيب تظهر في الخلوات والقرارات التي لا يراها الناس؛ حين يترك المرء منفعةً مضمونةً لأن وراءها غضب الله، فهو يجعل الآخرة واقعاً حاكماً قبل أن يدخلها.

أيهما نختار في تفاصيل اليوم؟

قد يتصور الإنسان أن إثارة الدنيا قرارٌ ضخم يقع مرةً واحدة، لكنه في الحقيقة يتشكل في اختيارات صغيرة تتكرر كل يوم. حين يؤخر الصلاة بلا عذر من أجل عملٍ يمكن تنظيمه، فهو يعلم قلبه أي النداءين أعلى؛ وحين يجمل كذبةً لتحفظ صورته، يدرّب نفسه على تقديم نظر الناس على علم الله؛ وحين ينفق ساعات في ملاحقة ما لا ينفع ثم يزعم أنه لا يجد دقائق للذكر، تكشف إدارة وقته ترتيب محبته.

وكذلك إشار الآخرة لا يعني أن يعيش الإنسان في قراراتٍ بطولية نادرة فقط، بل أن يضع الله أولاً في التفاصيل التي لا يصفق لها أحد: أن يرد كلمةً قاسيةً قبل أن تخرج، وأن يحفظ سرّاً أوّثمن عليه، وأن يتقن عملاً لن يراجع أحد تفاصيله، وأن يستغفر من خاطر كبر لم يطلع عليه بشر، وأن يختار الحلال ولو كان ربحه أقل. هذه الأفعال الصغيرة تصنع الاتجاه الكبير، وكل مرةٍ يقدم فيها العبد ما عند الله يوسع في قلبه القدرة على الاختيار الصحيح في الامتحانات الأعظم.

إن النفس لا ترتقي إلى الإيثار الكبير فجأة؛ من اعتاد أن يبيع مبادئه في الصغائر يصعب أن يثبت حين يرتفع الثمن، ومن درّب نفسه على الصدق في المساحات الخفية أعدها للثبات في العلن. ولهذا كان الذكر والصلاة سابقين لهذه المفاضلة؛ فهما تدريبٌ يومي على أن يكون الرب هو الأعلى، حتى إذا جاءت الدنيا تعرض صفقتها وجد القلب قد تعلم أن يقول: ما عند الله خيرٌ وأبقى.

الدنيا والآخرة ليستا زمنين منفصلين

ليست الدنيا غرفةً مغلقةً تنتهي ثم تبدأ الآخرة كقصة لا صلة لها بما سبق؛ فالآخرة هي انكشاف ما زرعه الدنيا، والدنيا هي مرحلة صناعة المصير الأخروي. كل فعلٍ هنا يمتد خيطه إلى هناك، وكل نيةٍ خفية ستجد

يومًا صورتها الظاهرة، وكل ظلم لم يحاسب عليه صاحبه في الأرض محفوظ، وكل دمة صبر صاحبها لله لم تسقط من الميزان. ومن هنا تكون العلاقة بين الدارين علاقة زرع وحصاد، لا خصومة تجعل إعمار الأولى نقيض الفوز بالثانية.

إنما تنشأ الخصومة حين تطلب الدنيا من الإنسان أن يعصي الله؛ عندها يجب أن يعرف أيهما يقدم. أما حين يسعى في الأرض بالحلل، وقيم العدل، ويصنع المعرفة النافعة، ويربي أبناءه، ويواسي المكسوم، فإن هذه الأعمال نفسها تتحول إلى رصيدٍ للآخرة. الآخرة لا تبدأ بعد الموت من كل وجه، بل تبدأ أخلاقياً من أول اختيارٍ يربط الفعل برضا الله، كما أن النار قد تبدأ بذرتها من قرار إعراض، واللجنة قد يبدأ طريقها من توبة لا يعلم بها أحد.

ولهذا ليس السؤال: كيف أترك الدنيا للآخرة؟ بل: كيف أجعل الدنيا طريقاً إلى الآخرة؟ كيف يتحول المال إلى صدقة، والعلم إلى هداية، والقوة إلى نصره، والحب إلى رحمة، والألم إلى صبر، والنجاح إلى شكر، والفقد إلى افتقار؟ هنا تتسع العبادة حتى تشمل الحياة، لا بإطلاق الاسم الديني على كل فعل، بل بتصحيح النية والوسيلة والغاية.

من الخبر القرآني إلى الحكمة القديمة

بعد تقرير المفاضلة تقول السورة: ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾. واسم الإشارة ﴿هَذَا﴾ يصل الرسالة الحاضرة بجذورها القديمة؛ وقد ذكر المفسرون أنه يشير إلى ما تقدم من معاني السورة، ولا سيما الفلاح بالتزكية والذكر والصلاة، وإيشار الآخرة لأنها خير وأبقى. والمقصود أن هذه الأصول ليست فكرةً مستحدثةً ظهرت مع الرسالة الخاتمة، بل هي من الحقائق الكبرى التي تواترت بها رسالات الله إلى البشر.

والتأكيد بـ﴿إِنَّ﴾ واللام في ﴿لَفِي﴾ يربخ هذا الامتداد؛ فليس التشابه بين الرسائل مصادفةً تاريخيةً، وإنما وحدة مصدر وغاية. اختلفت الشرائع في بعض تفاصيلها بحسب الأزمنة والأقوام، لكن أصل التوحيد، وتزكية النفس، وذكر الله، والمسؤولية الأخلاقية، وعلو الآخرة على الدنيا، ظل واحداً؛ لأن الإنسان في جوهر امتحانه لم يتغير. تغيرت مساكنه ووسائل سفره، واتسعت معرفته بالمادة، لكنه بقي يحمل قلباً يفتتن بالعاجل، ونفساً تحتاج إلى التزكية، وعقلاً قد يستخدمه للهداية أو التبرير.

إن الإشارة إلى الصحف الأولى تمنح المعنى عمقاً تاريخياً يواجه غرور اللحظة؛ فالإنسان الحديث قد يتوهم أن أسئلته لم يعرفها أحد قبله، وأن تقدمه في الأدوات حرره من حاجته إلى الوحي، بينما تكشف السورة أن

أزمته الأساسية قديمة: ماذا يعبد؟ ماذا يقدم حين تتعارض المنفعة مع الحق؟ هل يعيش للحظة أم للأبد؟ قد تتغير صورة المرعى من حقول خضراء إلى أسواق وأسهم وشاشات، لكنه يظل مرعى يزدهر ثم يصير غثاء، ويظل السؤال قائماً: أينخذ الإنسان منه زاداً أم يتخذه إلهاً؟

وحدة المصدر ووحدة الإنسان

إذا كانت هذه الحقائق في الصحف الأولى، فهذا يعني أن الوحي يخاطب بنيةً ثابتةً في الإنسان وراء اختلاف الثقافات؛ فالنفوس كلها تعرف التعلق والخوف، وتحتاج إلى معنى يجاوز الموت، وتواجه إغراء تقديم العاجل. قد تختلف اللغات التي تعبّر بها البشرية عن قلقها، لكن أصل القلق واحد، وقد تنوع الأصنام التي تصنعها، لكن جوهر الوثنية واحد: أن يحتل المحدود مقام المطلق في القلب.

ومن هنا لا تكون وحدة الرسالات مجرد وحدة في المعلومات، بل وحدة في مشروع تحرير الإنسان؛ كل نبي جاء ليعيد العلو إلى موضعه، فيسقط علو الطاغوت والهوى، ويربط الخلق بربهم الأعلى. لقد تنوعت ساحات المواجهة، لكن المعركة واحدة: إبراهيم عليه السلام أمام الوثنية التي منحت الحجر والملك قداسةً لا يملكها، وموسى عليه السلام أمام طغيان أعلن علوه في الأرض، ومحمد صلى الله عليه وسلم أمام جاهلية جمعت عبادة

الأصنام واستعباد الضعفاء وإيثار المصلحة القبلية على الحق. وفي كل مرة كان الوحي يقول للإنسان بلسان الحال والمقال: لا تجعل الأدنى أعلى، ولا تعطِ الفاني حق الباقي.

صحف إبراهيم: التوحيد الذي يحطم الأصنام

يأتي التوحيد: ﴿صُفِّ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾، فيذكر إبراهيم عليه السلام أولاً؛ أبو الأنبياء وإمام الخنفاء، الذي جسدت سيرته انفصلاً عميقاً عن الإيثار الدنيوي حين تعارض مع أمر الله. خرج من المألوف العقدي لقومه، وكسر هيبة الأصنام في الوعي قبل أن يكسر تماثيلها، وواجه النار بقلبٍ عرف أن ربّه هو الأعلى، وترك الوطن حين صار البقاء فيه قيداً على الرسالة، وأبلى في أحب ما يملك فقدم التسليم لله على تعلق النفس.

إن تجربة إبراهيم عليه السلام تكشف أن التوحيد ليس فكرةً فلسفيةً عن وحدة الخالق فحسب، بل ثورةً على كل ما يطالب الإنسان بالخضوع المطلق لغير الله. الصنم الحقيقي ليس الحجر وحده، بل كل شيءٍ نخشى فقداه حتى نعصي الله من أجله؛ قد يكون نسباً، أو وطناً، أو مكانةً، أو حباً، أو صورةً بناها الإنسان لنفسه. وإبراهيم لم يكن أباً الموحدين لأنه نطق بالحقيقة فقط، بل لأنه دفع ثمنها حين تعارضت مع أمنه الاجتماعي ومألوف قومه.

وفي قصة إبراهيم يظهر معنى ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ في صورة حركة حية؛ فمن يترك أرضه لله لا يفعل ذلك لأنه يكره الوطن، بل لأنه أحب الحق أكثر، ومن يواجه النار لا يجهل ألمها، بل يعرف أن رضا الله أعلى من سلامة تُشترى بالانحناء للباطل. لقد كانت الخشية في قلبه أقوى من الخوف، وكانت الهداية أقوى من العادة، وكان اليقين بالأبقى أقوى من تهديد العاجل.

وذكر صف إبراهيم يرد الإنسان إلى صفاء السؤال الأول: من الأعلى؟ ما الذي إذا أمر قُدِّم أمره، وإذا نادى أُجيب، وإذا تعارض رضاه مع رضا الخلق اختيار؟ وكل من يقرأ السورة يحتاج إلى أن يبحث عن أصنامه الداخلية؛ فقد يكون اللسان موحدًا، بينما في القلب أشياء لا يقدر على مخالفتها ولو خالفت أمر الله. ليس تحطيم الأصنام حدثًا تاريخيًا انتهى، بل عملية تزكية متجددة، لأن النفس بارعةٌ في نحت أصنامٍ جديدة من المواد التي تحبها.

صف موسى: الوحي في مواجهة الاستعلاء

ثم يُذكر موسى عليه السلام، النبي الذي واجه في فرعون صورةً مكتملةً من صور إيثار الدنيا والاستعلاء بها؛ ملكٌ أغرته أسباب القوة حتى نازع في مقام الربوبية، ورأى الأنهار تجري من تحته فظن أن ما تحت قدميه يرفعه

فوق الحقيقة. لقد امتلك فرعون من المرعى السياسي والمادي ما أبهر
الأعين، لكنه لم ير الغشاء المختبئ في نهايته، ولم يدرك أن الماء الذي تفاخر
بملكه سيكون هو نفسه مشهد سقوطه.

وقصة موسى تعلم الإنسان أن القوة حين تنفصل عن التسبيح تتحول إلى
وهم علو، فبدل أن يرى صاحبها نفسه مستخلفاً يسأل عن عدله، يرى
الآخرين مادةً لمجده، ويقسم الناس شيعاً، ويستضعف طائفةٌ منهم ليضمن
بقاء سلطانه. إن الطغيان السياسي يبدأ من خطأ عقدي عميق: أن ينسى
الإنسان أن الله هو الأعلى، وأن ما في يده تقديرٌ مؤقت يمكن أن يُنزع في
لحظة.

لكن موسى نفسه خرج إلى المواجهة بلا زينة ملكية؛ يحمل كلمةً وعصاً
ويقيناً، ليكشف الوحي أن موازين القوة لا تختصر في المادة المريئة. كان
فرعون يملك الجند، لكن موسى يملك الحق، وكان الطاغية يملك الحاضر،
لكن الرسول متصلٌ برب الحاضر والمستقبل. وحين انتهى المشهد، بقي
موسى في ذاكرة الإيمان، وصار فرعون عبرةً تتكرر تلاوتها؛ فثبت أن الآخرة
خير وأبقى، وأن القيم المتصلة بالله أطول عمراً من الإمبراطوريات.

وذكر موسى هنا يجعل السورة تتجاوز التزكية الفردية المنعزلة؛ فالذي
يتزكى حقاً لا يقبل أن يشارك في ظلم فرعوني، والذي يذكر اسم ربه لا

يذكره في المحراب ثم ينسى عباده المستضعفين، والذي يصلي للأعلى لا يمنح الطاغية في قلبه علواً مطلقاً. العبادة الصادقة تحرر الداخل، والتحرر الداخلي يصنع موقفًا من الاستعباد الخارجي.

الصحف الأولى والرسالة الخاتمة

حين يقرر القرآن أن هذه المعاني في صحف إبراهيم وموسى، فإنه لا يستمد شرعيته منهما، فهو كلام الله المهيمن على ما سبقه، وإنما يكشف وحدة النور الذي صدر عن المصدر نفسه. الرسالة الخاتمة لا تقطع التاريخ الرسالي، بل تجمعها وتصحح ما وقع في تلقي البشر له، وتعيد أصول الهداية في بيانٍ محفوظ للعالمين.

وفي هذا الامتداد عزاءً للنبي صلى الله عليه وسلم ومن يسير في طريقه، فالرسالة التي يحملها ليست غريبةً عن تاريخ النبوات، والإعراض الذي يواجهه ليس حادثةً لم يعرفها الرسل من قبله. لقد انقسم الناس دائماً أمام الذكرى: من يخشى فيتذكر، ومن يتجنبها شقاءً، لكن الحق لم يفقد قيمته لقلة مستجيبيه، ولم تتحول الدنيا إلى أبقى لأن أهلها آثروها. إن مرور القرون لا يغير حقيقةً عند الله، وكثرة المعرضين لا ترفع الأدنى إلى مقام الأعلى.

وحدة الرسالات كذلك تربي المؤمن على توقيف جميع الأنبياء وعدم تحويل الانتماء الديني إلى عصبيةٍ تلغي فضل من سبق، فلا إبراهيم وموسى ومحمد

عليهم الصلاة والسلام حلقات في سلسلة الهداية الربانية، ودعوتهم في أصلها دعوة إلى الله الواحد. لا عصمة للتاريخ البشري الذي تشكل حول أتباعهم، لكن فضل الأنبياء ورسالاتهم محفوظ، والقرآن يعلم أتباعه أن يؤمنوا برسول الله من غير تفریق في أصل التصديق والتوقير.

الحكمة القديمة في عالم يتوهم الجدة

تعاني الحضارة الحديثة من وهم خفي مفاده أن كل قديم متجاوز، وأن تطور الوسائل يعني بالضرورة تطور الغايات؛ غير أن الإنسان قد يعرف اليوم عن تركيب المادة أكثر مما عرف القدماء، ولا يعرف بالضرورة كيف يضبط شهوته أو يقيم عدله. يمكن للآلة أن تتقدم بينما يتراجع مستخدميها أخلاقياً، ويمكن للمعرفة أن تمنح الإنسان قدرة أكبر على البناء أو التدمير من غير أن تحدد له أيهما يختار.

لهذا تحتاج البشرية إلى الصحف الأولى لا لأنها تعيدها إلى بدائية الوسائل، بل لأنها تعيدها إلى أصالة السؤال؛ فما قيمة أن يعرف الإنسان كيف يصل بسرعة إذا كان لا يعرف إلى أين ينبغي أن يذهب؟ وما قيمة أن يضاعف الإنتاج إذا كان قد تحول هو نفسه إلى مستهلك لا يشبع؟ وما قيمة أن يطيل متوسط العمر إذا كان لا يمنح العمر معنى يستحق الامتداد؟

إن الوحي لا ينافس العلم في مجاله، بل يمنع أدوات العلم من أن تعمل في فراغ أخلاقي يتركها لأهواء الأقوى.

والحقيقة القديمة لا تصبح باليةً لمجرد قدمها؛ فالماء قديم، وحاجة الجسد إليه لم تنته، والشمس قديمة، ولم تفقد قدرتها على الإضاءة. وكذلك حاجة الإنسان إلى معرفة ربه، وتزكية نفسه، وتذكر مصيره؛ هي أقدم من حضاراته، لكنها تتجدد مع كل مولود، لأن كل إنسان يبدأ امتحانه من جديد. لا يرث أحدٌ إيمان آبائه كما يرث ملامحه، بل عليه أن يعثر بنفسه على جواب السؤال: أيهما سأوثر، الدنيا أم الآخرة؟

مقياس التقدم في ميزان السورة

إذا كانت الآخرة خيراً وأبقى، فإن تقدم الإنسان لا يقاس فقط بمقدار ما يسيطر عليه من العالم، بل بمقدار ما يسيطر عليه من نفسه؛ قد يهزم المسافات ويظل مهزوماً أمام غضبه، ويكتشف قوانين النجوم ويجهل قوانين سقوطه الأخلاقي، ويبني المدن الذكية بينما يترك القلب في بدائية الحسد والطمع. التقدم المادي نعمةٌ عظيمةٌ حين يوضع في خدمة الإنسان، لكنه يتحول إلى خطرٍ حين يزيد قدرة النفس غير المزكاة على تحقيق شهواتها وفرض ظلمها.

إن السورة تقدم معياراً مزدوجاً للحضارة: أن تهتدي في الوسيلة والغاية معاً. ﴿الَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ يفتح باب اكتشاف السنن، و﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ يضبط من يستخدمها، و﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ تحدد أفق القيمة. فإذا انفصلت القدرة عن التزكية، صار التقدم تضخيماً ليد الإنسان من غير تهذيبٍ لقلبه، وقد تمنح التقنية الظالم أدوات لم يعرفها الطغاة القدماء. أما حين يتصل العلم بالتسبيح، يرى الباحث في الكون أثر الحكمة، ويتعامل مع اكتشافه أمانةً لا وسيلةً استعلاء.

وحدة السورة من الأعلى إلى الأبقى

حين نعيد النظر في بناء السورة كاملة، نرى خيطاً واحداً يصل أولها بآخرها: بدأت بـ﴿الْأَعْلَى﴾ وانتهت بـ﴿أَبْقَى﴾؛ فالله هو الأعلى، والآخرة التي أعدها لعباده خيرٌ وأبقى، والإنسان بين هاتين الحقيقتين مدعو إلى ألا يجعل شيئاً من الدنيا أعلى في قلبه، ولا يظن شيئاً من زينتها أبقى مما عند الله.

وبين «الأعلى» و«الأبقى» تتحرك السورة كلها: الخلق والتسوية يكشفان كمال القدرة، والتقدير والهداية يكشفان الحكمة، والمرعى والغناء يكشفان فناء الدنيا، والإقراء وعدم النسيان يكشفان حفظ الوحي، والتيسير لليسرى يكشف العناية بالطريق، والتذكير يكشف وظيفة الرسالة، والخشية والتجنب

يكشفان انقسام القلوب، والتزكية والذكر والصلاة تكشف طريق الفلاح، ثم تأتي المفاضلة لتفسر سبب الانحراف وتضع المآل في ميزانه الصحيح.

إن السورة لا تطلب من الإنسان أن يضيف إلى حياته معلومةً عن الآخرة، بل أن يعيد بناء حياته كلها في ضوء الآخرة. والفرق بين الأمرين كالفرق بين من يعرف اتجاه القبلة ولا يصلي، ومن يجعل معرفته حركةً ووقوفاً وسجوداً؛ فقد يؤمن الإنسان نظرياً بأن الآخرة خير، لكن تفاصيله اليومية تشهد بأنه يمنح الدنيا الأفضلية. ولذلك يكون صدق الإيمان ظاهراً في لحظات التزاحم: حين لا يمكن الجمع بين رضا الله ومصلحة عاجلة، أيهما يختار؟

السؤال الذي تركه السورة في القلب

تغلق سورة الأعلى آياتها، لكنها تفتح في النفس سؤالاً لا ينبغي أن يغلق: ما الذي أؤثره حقاً؟ لا ما الذي أدعي إيثاره، ولا ما الذي أحسن الحديث عنه، بل ما الذي تكشفه أوقاتي وأموالي ومخاوفي واختياراتي؟ إن الإنسان يستطيع أن يقول إن الله هو الأعلى، لكن ما الذي يستولي على قلبه؟ ويستطيع أن يقول إن الآخرة أبقي، لكن لأي الدارين يقدم أجمل طاقته وأخلص قصده؟

هذا السؤال ليس محكمةً لليأس، بل بابٌ للتزكية؛ فما دام الإنسان قادراً على رؤية اختلال ميزانه، فهو قادرٌ بعون الله على إعادة ترتيبه. قد يجد أن الدنيا تسَلَّت إلى مواضع كثيرة من قلبه، لكن الذكرى جاءت كي تنفعه لا كي تسحقه، وجاءت لتقول له إن باب الفلاح يبدأ من فعلٍ حاضر: أن يتزكى، ويذكر اسم ربه، ويصلي. ليست مطالباً بأن تحو في لحظة آثار عمرٍ من التعلق، وإنما بأن تستعيد جهة السير، وأن تنقل الدنيا كل يوم خطوةً من العرش إلى اليد، وتنقل الآخرة من هامش التفكير إلى مركز القرار.

وهكذا تنتهي السورة حيث يلتقي أقدم الوحي بأحدث قلب يتلوه، كلماتٌ كانت في الصحف الأولى، ثم نزلت في القرآن الخاتم، وما تزال تدخل في كل عصر إلى إنسانٍ تحاصره الدنيا بالسؤال نفسه. تغير المرعى، ولم يتغير الغشاء؛ تغيرت الأصنام، ولم يتغير معنى العبودية؛ تطورت أدوات الإغراء، ولم يتغير طريق الفلاح.

ويبقى النداء ممتداً فوق الزمن كله: سَبِّحِ الأَعْلَى، واتبع الهدى، وتذكر إذا جاءتك الذكرى، وطهر قلبك، وأقم صلاتك، ولا تبع الأَبْقَى بما يفنى؛ فالحياة مهما اخضرت سائرةً إلى غنائها، ولا نجاة للإنسان من قانون الزوال إلا أن يتصل عمله بالله الذي لا يزول:

﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى ﴿صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ
وَمُوسَى﴾ •

الخاتمة الفكرية الجامعة

حين يعرف الإنسان ما هو الأعلى يختار ما هو الأبقى

ليست سورة الأعلى مجموعةً من الوصايا المتجاورة، ولا مقاطع متفرقةً يجمعها قصر السورة وإيقاعها المهيّب فحسب، وإنما هي رحلةٌ كاملةٌ لإعادة بناء الإنسان من أعلى نقطة في تصوره إلى أدق موضع في اختياره؛ تبدأ بالسؤال الذي لا يُطرح صراحةً لأن الجواب يملأ أفقها كله: من الأعلى؟ ثم تنتهي بالسؤال الذي تحدده حياة الإنسان ومصيره: أيهما تؤثر، ما يفنى أم ما يبقى؟ وبين السؤالين تشق السورة طريقها داخل العقل والقلب والإرادة، فتطهر التصور بالتسبيح، وتوقظ الفكر بمشاهد الخلق، وثبتت الثقة بوعده الوحي، وتكشف سر الاستجابة في الخشية، ثم تضع أمام الإنسان طريق الفلاح في التزكية والذكر والصلاة، قبل أن تفضح العلة التي تستدرجه إلى الشقاء: إثارة القريب الأدنى على الخير الأبقى.

كانت الكلمة الأولى: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾؛ لأن كل إصلاح لا يبدأ بتصحيح معرفة الإنسان بربه سيظل إصلاحاً مهدداً بأن يحتل فيه مخلوق مقام الخالق، أو تحول الوسيلة إلى معبود، أو يصير الهوى مرجعاً يتأول الحق وفق رغباته. إن التسبيح ليس لفظاً منفصلاً عن حركة الحياة، بل تحريرٌ للعقل من التصورات التي لا تليق بالله، وتحريرٌ للقلب من الخضوع

المطلق لما سواه، وتحريرٌ للإرادة من خوف المخلوق حين ينازع أمر الخالق. وحين يعرف العبد أن الله هو الأعلى، تسقط من داخله عروشٌ كثيرة كانت تستمد سلطانها من الوهم؛ فلا يعود المال أعلى من الضمير، ولا السلطة أعلى من العدل، ولا رضا الجمهور أعلى من رضا الله، ولا الأم أعلى من الحكمة التي قد يخبئها القدر في أعماقه.

ومن معرفة الأعلى تنفتح العين على الكون، فلا تراه مادةً عمياء تتدافع بلا غاية، بل أثراً من آثار الخلق والتسوية والتقدير والهداية: ﴿وَالَّذِي خَلَقَ فَسْوَى﴾ ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾. إن الوجود في هذه الآيات لا يقدم نفسه فوضى ينبغي على الإنسان أن يخترع لها معنى، وإنما نظاماً سبقه العلم، وأقامته الحكمة، وسرت في أجزائه هداياتٌ تصل كل مخلوق بما يصلحه. فإذا كان الله قد أودع في البذرة طريقها إلى الضوء، وفي الكائن طريقه إلى رزقه، وفي الأعضاء هدايةً صامتةً إلى وظائفها، فكيف يترك الإنسان، صاحب السؤال والمسؤولية والمصير، بلا وحي يرشده إلى الغاية التي لا يبلغها الحس وحده؟

لقد أعادت السورة للكون لغته؛ فلم يعد المرعى نباتاً يظهر ثم يختفي، بل صار خطاباً عن الدنيا كلها: ﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى﴾ ﴿يَجْعَلْهُ غِثَاءً﴾ ﴿أَحْوَى﴾. في هاتين الآيتين نرى الحياة وهي تتزين ثم تنكشف، وتختصر ثم

تذبل، وتعد بالبقاء ثم يفضح الزمن حدودها. وليس الغرض أن يخاصم الإنسان جمال الأرض، بل أن يحسن قراءته؛ فالجمال نعمةٌ حين يدل على المنعم، وفتنةٌ حين يحجب عنه، والمال أداةٌ حين تسكنه اليد، ووثنٌ حين يحتل القلب، والدنيا مزرعةٌ حين تُستثمر للآخرة، لكنها تصير خدعةً حين يطلب الإنسان منها بقاءً لا تملكه.

علمتنا صورة المرعى أن الحكمة لا تنظر إلى الأشياء عند ظهورها فقط، بل تقرأ نهاياتها وهي ما تزال في بداياتها؛ فالمعصية قد تبدو خضراء في عين الشهوة، لكنها تحمل غثاءها في داخلها، والطاعة قد تبدو شاقةً في أول الطريق، لكنها تحمل سكينتها قبل أن تظهر ثمرتها. والبصيرة ليست أن يكتشف الإنسان فناء الدنيا بعد أن تفلت من يده، بل أن يعرف حقيقتها وهي مقبلة عليه بكامل زينتها، فينتفع بها ولا يعبدها، ويشكرها ولا يغتر بها، ويأخذ منها ما يعينه على المسير من غير أن يبني خيمته الأخيرة في محطة الرحيل.

ثم انتقلت السورة من الهداية السارية في الكون إلى الهداية النازلة في الوحي: ﴿سَنُقَرِّئُكَ فَلَا تَنسَىٰ ۚ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾، فكشفت أن القرآن ليس أثراً بشرياً حمله التاريخ مصادفة، بل رسالةٌ أحاطتها العناية منذ لحظة التلقي؛ أقرأها الله رسوله صلى الله عليه وسلم، وحفظها له، وربط ذلك كله

بمشيئته حتى لا تُنسب نعمة الحفظ إلى استقلالٍ بشري عن واهبها. وبهذا الوعد لم يُحفظ النص وحده، بل حُفظ الميزان الذي تستطيع البشرية أن تراجع به نفسها كلما خدعتها أسماؤها الجديدة، وتكشف به الأصنام وإن لم تعد أبحاراً، والعبودية وإن لبست ثوب الحرية، والجاهلية وإن حملت أكثر الأدوات تطوراً.

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى﴾ ردتّ السورة الإنسان من عالم الصورة إلى حقيقة السريرة؛ فالحياة التي يراها الناس ليست إلا ظاهراً محدوداً، أما الحياة الكاملة فتمتد إلى النية التي دفعت، والباطن الذي استتر، والمصلحة التي تنكرت في هيئة مبدأ. يستطيع الإنسان أن يصنع لنفسه وجهاً اجتماعياً جميلاً، وأن يتقن خطاب الفضيلة، وأن يربح تصفيق الجمهور، لكنه لا يستطيع أن يحمل قناعه إلى علم الله؛ فهناك ينكشف الجهر وما يخفى، وتظهر المسافة بين الكلمة ومقصدها، وبين الصلاة وأثرها، وبين الزهد المعلن والدنيا المستترة في طلب المنزلة.

وهذا العلم الإلهي ليس مصدر رهبةٍ فحسب، بل هو موطن عزاءٍ عظيم؛ فكم من مخلصٍ ضاع صدقه في ضجيج التأويلات، وكم من مظلومٍ عجز عن إقامة حجته أمام الناس، وكم من دمعةٍ نزلت في ظلام الخلوة فلم يرها أحد. كل ذلك لا يسقط من العلم الذي يحيط بما يخفى، ولا تضيع معه الحقيقة

حين يعجز البشر عن اكتشافها. ومن عاش بهذا اليقين لم يعد مضطراً إلى أن يشرح نفسه في كل موطن، أو يستجدي من الخلق شهادةً ببراءته، بل يصلح سريره، ويذل ما يستطيع من البيان، ثم يستودع حقيقته عند من لا تخفى عليه خافية.

وبعد حفظ الوحي جاء تيسير صاحبه: ﴿وَنُيَسِّرْكَ لِلْيُسْرَى﴾؛ فلم يكن اليسر وعداً بحياةٍ تخلو من الألم، فقد حمل الرسول صلى الله عليه وسلم من المشاق ما تنوء به النفوس، وإنما كان تهيةً للروح كي تحمل الطريق، وتوجيهاً للفطرة نحو أيسر السبل إلى رضوان الله. وقد كشفت الآية أن العسر الحقيقي ليس دائماً في ثقل الظروف، بل قد يكون في نفسٍ لم تنسجم بعد مع غايتها؛ فإذا شرح الله الصدر للطاعة، صار ما كان يراه حملاً جناحاً، وإذا بقي الهوى متربعاً في القلب، بدت أيسر الشرائع قيوداً.

إن «اليسر» ليست ما وافق الراحة العاجلة، بل ما انتهى بالإنسان إلى السلامة؛ فقد يكون الدواء مرّاً لكنه أيسر من المرض، وقد يكون الاعتراف بالخطأ موجعاً لكنه أيسر من بناء العمر على المكابرة، وقد تكون الاستقامة مكلفةً لكنها أيسر من وحشة الضمير وسوء الحساب. ومن هنا اتصل التيسير بالتذكير، فمن يسر الله له طريق الخير لم يحتكر النور، بل حمّله إلى الناس: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى﴾.

والتذكير في منطق السورة ليس صناعة حقيقةٍ غريبةٍ عن الإنسان، بل إزالة غبارٍ تراكم على حقيقةٍ تعرفها فطرته ويؤكدها الوحي. أكثر البشر لا يجهلون أن الموت آتٍ، لكنهم يعيشون وكأنه استثناءٌ سيصيب الآخرين، ولا يجهلون أن الظلم قبيح، لكنهم يعيدون تسميته حين يخدّم مصالحهم، ولا ينكرون أن الدنيا تفتي، لكنهم يبنون اختياراتهم كما لو أنها باقية. ولهذا لا يكون التذكير إضافة معلومات إلى الذاكرة فحسب، بل إعادة الحقيقة إلى مركز القرار، حتى يصبح ما يعرفه الإنسان قوةً تحكم ما يختاره.

وقد أرست السورة بالتذكير فقهاً للخطاب يجمع الصدق والحكمة؛ فليست كل كلمة صحيحة نافعةً إذا قيلت في غير وقتها أو قُدمت بطريقةٍ تحطم المخاطب بدل أن تفتح له الباب، وليست الرحمة تزييفاً للحق، كما أن القسوة ليست دليلاً على قوته. المذكر الحق يحمل الكلمة بوصفها أمانة نجاة، لا وسيلة تفوق، ويرى نفسه أول المحتاجين إليها، فلا يجعل عيوب الآخرين منصةً يصنع عليها فضيلته، ولا يحول الموعظة إلى عقوبةٍ نفسية لمن يخالفه.

غير أن الذكرى الواحدة لا تصنع أثراً واحداً؛ فهناك من يستقبلها بخشية، وهناك من يتجنبها بشقاء: ﴿سَيَذَكَّرُ مَنْ يَخْشَى ۖ وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى﴾. ليست الخشية رعباً يطرد الإنسان من رحمة الله، بل معرفة دخلت القلب فحرته من غروره؛ إنه يخشى لأن الله عظيم، ويرجو لأن الله

رحيم، ويقترب لأنه يعلم أن الفرار من الله لا يكون إلا إليه. والخشية تجعل المؤمن قادراً على سماع ما لا يوافق هواه، وعلى النظر في المرأة من غير أن يحطمها لأنها كشفت عيبه، وعلى الرجوع من الطريق حين يتبين خطؤه ولو قطع فيه مسافةً طويلة.

أما الأشقى فلا يوصف بمجرد وقوعه في الذنب، فكل بني آدم يخطئون، وإنما يبلغ شقاءه حين يتجنب ما يعيده؛ حين يحمي جرحه من الدواء، ويهرب من الكلمة التي تستطيع إنقاذه، ويحوّل الخطأ من فعلٍ يندم عليه إلى هويةٍ يدافع عنها. إن أخطر ما يصيب الإنسان ليس أن يسقط، بل أن يبني في موضع السقوط بيتاً، ثم يعادي كل يد تحاول أن تنهض به.

وقد يصل التجنب إلى أن يصنع الإنسان حول نفسه عالماً من الضجيج حتى لا يسمع صوته الداخلي؛ يهرب من الصمت لأنه يخشى أن يرى فيه وجهه بلا رتوش، ويملاً وقته بما لا ينفع كيلا يبقى فيه فراغٌ لسؤال المصير. لكنه كلما ابتعد عن الذكرى ابتعد عن ذاته الصحيحة، حتى يصل الشقاء إلى مآله: ﴿الَّذِي يَصِلَى النَّارَ الْكُبْرَى﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى .

إن النار الكبرى حقيقةٌ غيبية أخبر الله بها، فلا يجوز تفريغها من معناها وتحويلها إلى استعارةٍ نفسية محضة؛ غير أن الإيمان بحقيقتها يرينا كذلك أن بعض الاختيارات يحمل منذ الدنيا اتجاهه الأخروي. فمن رفض

الحياة التي يصنعها الإيمان، عاش في داخله صورةً من موت المعنى، ولو ظل جسده يتحرك؛ يستهلك الذات من غير شعاع، ويحقق الأهداف من غير سكينه، ويبحث في الخارج عن شيءٍ فقد مفتاحه في الداخل. وليس هذا هو العذاب الأخروي المذكور في الآية، ولكنه إنذارٌ يبين أن البعد عن الله لا يستطيع أن يصنع حياةً كاملة، مهما ازدانت واجهتها.

وفي مقابل المصير الذي ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾، تفتح السورة باب الفلاح: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ وذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى. وما أعظم الرحمة في هذا الانتقال؛ فالقرآن لا يصف الهاوية ثم يترك الإنسان على حاقها، بل يرسم طريق النجاة في كلمات قليلة تحمل مشروعاً كاملاً لإعادة بناء الذات. التزكية تطهرها وتبني فضائلها، والذكر يملؤها بحضور الرب بعد أن تتخفف من سلطان الهوى، والصلاة تجعل هذا الحضور عهداً يتجسد في الزمان والجسد والعمل.

والتزكية ليست إعلان النفس طاهرة، بل اكتشافٌ مستمر لحاجتها إلى التطهير؛ فمن زكى نفسه بمعنى مدحها حجبها عن الإصلاح، ومن تزكى بمعنى جاهد أمراضها فتح لها باب النمو. إن الإنسان قد يخرج الحسد من عبارة لسانه ويبقيه في خفاء قلبه، وقد يترك شهوة مالٍ ليدخل في شهوة ثناء، وقد يتواضع منتظراً أن يقال عنه متواضع؛ ولذلك لا تقف التزكية عند السطح،

بل تنزل إلى النيات التي يعلمها الله، وتفتش عن الدنيا حين تختبئ في عبادة الزهد، وعن الكبر حين يتحدث بلغة الغيرة على الحق.

وليست التزكية قطيعةً مع المجتمع أو انشغالاً بتجميل الشعور الداخلي بعيداً عن حقوق الناس؛ فالروح التي تزعم طهارتها بينما تظلم وتكذب وتخون لم تفهم تزكيتها. تزكية القلب تظهر في اليد حين تعف، وفي اللسان حين يصدق، وفي القوة حين تعدل، وفي الخلاف حين تحفظ كرامة الخصم، وفي الولاء حين لا يحول الانتماء إلى صنم. إن الطريق إلى الله لا يمر فوق جراح العباد، والصلاة التي لا تدفع صاحبها إلى مراجعة ظلمه لم تبلغ بعد موضعها من روحه.

ثم يأتي الذكر لينع الفراغ من إعادة إنتاج الأدواء؛ فليس كافياً أن تخرج الدنيا من القلب، بل لا بد أن يسكنه ما هو أعلى منها. وذكر اسم الرب يعيد فاتحة السورة إلى قلب خاتمتها؛ بدأت بـ ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾، ثم صار الفلاح لمن ﴿ذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ﴾، وكأن الاسم الإلهي هو المركز الذي يبدأ منه الطريق ويعود إليه. نذكر الله لا لأن الكلمات وحدها تغيرنا، بل لأن استحضار علمه وقدرته ورحمته ووعده يعيد ترتيب اختياراتنا؛ فإذا حضر الرازق صغر خوف الرزق، وإذا حضر الغفور اتسع

باب التوبة، وإذا حضر الأعلى سقط علو الباطل، وإذا حضرت الآخرة هان بريق ما يفنى.

ثم تتجسد الذكري في الصلاة: ﴿فَصَلِّ﴾. ففي الصلاة تستعيد الحياة مركزها خمس مرات كل يوم، وينقطع استرسال الدنيا لتسمع الروح أن فوق مواعيدها موعداً، وفوق حاجاتها رباً، وفوق مخاوفها قدرة لا يعجزها شيء. يقول المصلي: «الله أكبر»، فيعيد الأشياء إلى أجماعها الصحيحة؛ لا تخنفي المشكلة، لكنها لا تعود أكبر من الله في شعوره، ولا يزول الألم، لكنه يدخل تحت سقف الحكمة والرجاء. ويسجد الجسد، فيكتشف الإنسان أن أعلى مقاماته الروحية يتحقق في أخفض هيئة جسدية، وأن العلو لا يكون بتضخم الذات، بل بصدق عبوديتها للأعلى.

وبعد أن تكتمل خريطة الفلاح، تكشف السورة سبب الإعراض: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾. إنها جملة تواجه الإنسان بالحقيقة التي يحاول أحياناً أن يغطيها بالتعقيدات الفكرية؛ فقد يعرف ثم يؤثر غير ما عرف، ويقتنع ثم يخون قناعته حين ترتفع الكلفة. ليست الأزمة نقصاً في البرهان دائماً، بل قد تكون حباً لنتيجة لا يمنحها الحق، أو خوفاً على امتياز سيهدمه العدل، أو تعلقاً بصورة لا تستطيع التوبة أن تبقها كما هي.

والإيثار هو مركز الاختبار، لأن الدنيا ليست شراً في ذاتها؛ هي ميدان العمل وموضع الأمانة، وفيها من الجمال والطيبات ما خلقه الله لعباده. لكن الخلل يبدأ حين تصبح أعلى من أمر الله، وحين يعصي الإنسان كي يحتفظ بها، وحين يقيس الحق بما تمنحه من مكاسب. ليس الزاهد من لا يملك الدنيا بالضرورة، بل من لا تملكه؛ يحملها في يده، ويستعملها في وظيفتها، ويستطيع أن يترك منها ما يطلب الله تركه من غير أن يشعر أن ذاته نفسها قد انهارت.

لقد فضحت السورة خداع القرب؛ فالدنيا تملأ الحواس لأنها حاضرة، أما الآخرة فغيب، فيرى ضعيف اليقين القريب أعظم لمجرد قربهِ. لكن قرب الشيء من العين لا يحدد حجمه الحقيقي؛ قد تملأ ذرةٌ مجال النظر إذا التصقت به، بينما يختفي الجبل في البعد فلا يصير أصغر. وجاء الوحي ليصحح خداع المنظور، ويقول: لا تقيس الأشياء بقربها، بل بخيرتها وبقائها: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾.

جمعت هذه الآية معيارين لا يترك اجتماعهما للعقل موضع حيرة: الآخرة خيرٌ في حقيقتها، وأبقى في مدتها. ليست استمراراً لا نهاية له من النوع نفسه الذي نعرفه في الدنيا، بل دارٌ يصفو فيها الخير من منغصاته، فلا مرض يطارد الصحة، ولا فراق يختبئ في اللقاء، ولا ذبول يسكن في

الجمال، ولا خوف من النهاية يفسد تمام النعمة. في الدنيا لا يكاد الإنسان يعانق شيئاً حتى يشعر بالزمن يسحبه منه، أما الآخرة فهي استجابة الله لتوق الروح إلى خيرٍ لا يفر، وأمانٍ لا ينكسر، وقربٍ لا يعقبه رحيل.

وما دام الإنسان يطلب البقاء، فإن الحكمة ليست في قتل هذا الطلب، بل في توجيهه إلى موضعه؛ فلا يستطيع الفاني أن يمنح فانيّاً خلوداً، ولا تستطيع الأشياء المهددة بالزوال أن تشفي خوف القلب من الفقد. وكلما طلب الإنسان من الدنيا ما لا تملكه، عاقبته بخيبةٍ لم تصنعها هي، بل صنعها سوء انتظاره منها. الدنيا لم تعده بالبقاء حتى يصفها بالخيانة حين تتغير، إنما أخبره الله منذ ظهور مرعاها أن مآلها إلى غشاء، وأن الخطأ ليس في اخضرارها، بل في أن يراها خضراء فينسى نهايتها.

ولا تعني مركبة الآخرة تعطيل الدنيا؛ بل تمنح العمل فيها غايته الأخلاقية. فالقاضي يعدل لأنه سيلقى الله، والعالم يصون معرفته من خدمة الفساد لأنه مسؤول عنها، والكاتب يرفض أن يبيع كلمته لأن ما عند الله أبقى من تصفيق الجمهور، وصاحب القوة يحفظ حق الضعيف لأنه يعلم أن التاريخ ليس المحكمة الأخيرة. إن الإيمان بالآخرة لا يخرج المؤمن من العالم، بل يخرج من عبوديته للعالم، ثم يعيده إليه أقدر على العمل من غير أن تبتله النتائج.

ومن أعمق ما تعلنها السورة أن إشار الآخرة لا يقع في القرارات الكبرى وحدها، بل يُصنع في التفاصيل التي لا ينتبه إليها الناس؛ في كلمة يتلعبها صاحبها حتى لا يظلم، وفي مالٍ يردده لأن فيه شبهة، وفي صلاةٍ يقيمها حين تتزاحم المواعيد، وفي اعترافٍ بخطأٍ يجرح صورته لكنه ينقذ قلبه. كل اختيارٍ صغير يدرّب النفس على جهة، حتى تصبح ميسرةً لها؛ فمن آثر الله في الخفاء استطاع أن يؤثره حين يكبر الامتحان، ومن باع ضميره في الصغائر وجد بيعه في الكبائر أسر مما ظن.

ثم لم تترك السورة هذه الحقيقة معلقةً بلحظة نزولها، بل مدتها في تاريخ النبوة: ﴿إِنَّ هَذَا لَنَبِيٍّ لِّكُتُبِ الْأَوَّلَى﴾ ﴿صُفِّ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾. إن تزكية النفس، وذكر الرب، وإشار الآخرة، ليست أفكاراً مستحدثة، بل من أصول خطاب السماء للإنسان؛ لأن أزمته الجوهرية لم تتغير وإن تغيرت أدواته. ما زال يبني الأصنام وإن تبدلت موادها، ويخضع للفراغة وإن تغيرت ألقابهم، ويفتن بالمرعى وإن ظهر له اليوم في هيئة ثروة أو شهرة أو صورة رقمية أو سلطة سياسية.

يمثل إبراهيم عليه السلام في هذا الامتداد تحرير التوحيد للإنسان من الأصنام؛ ليس صنم الحجر وحده، بل كل محبوبٍ يطلب من القلب أن يعصي الله كي يحتفظ به. وتمثل رسالة موسى عليه السلام مواجهة الوحي

لادعاء العلو الفرعوني، حين تخدع القوة صاحبها فيظن أن جريان الأنهار من تحته يجعله فوق الحقيقة، ثم يأتي المصير ليكشف أن ما بدا ملكاً خالداً لم يكن سوى مرعى سياسيٍّ أخضر أخفى غشاءه إلى حين.

وهكذا تتوحد الرسائل حول مشروع واحد: إعادة العلو إلى موضعه، وتحرير الإنسان من عبادة الأدنى، وربط حركته في الدنيا بمصيره في الآخرة. وقد تتغير تفاصيل الشرائع، لكن الأصل يبقى: الله وحده الأعلى، والوحي هو الهدى، والنفوس تحتاج إلى التزكية، والحق أثمن من المنفعة، والآخرة خير وأبقى.

الثمرة العملية: كيف نعيش سورة الأعلى؟

ليس الأثر المنشود من هذا التأمل أن يزداد القارئ إعجاباً بجمال السورة ثم يعود إلى الموازين نفسها التي دخل بها، بل أن تتحول السورة إلى طريقة للنظر والعمل. أن يتوقف قبل كل اختيارٍ مهم ويسأل: ما العلو الزائف الذي أخشاه هنا؟ وما المرعى الذي بهرني حتى نسيت غشاءه؟ هل تحركني الخشية أم يحركني الخوف من الناس؟ هل أستقبل الذكرى لتصلحني أم أبحث عن طريقة أتجنب بها حكمها؟ هل تقودني صلاتي إلى التزكية، أم تركتها عادةً معزولةً عن أخلاقي؟

ويبدأ الأثر العملي من حفظ مقام الأعلى في القلب؛ فلا يُقدّم على أمره أمر، ولا على خبره تصور، ولا على رضاه رضا. ثم يمتد إلى قراءة النعم قراءة المرعى؛ نُشكر ونُسعمل ولا يُتوهم دوامها. ويمتد إلى السريّة التي يعلمها الله؛ فتكون العناية بإصلاح الباطن أسبق من تليع الصورة. ثم إلى استقبال التذكير بتواضع؛ فلا يُجعل الناصح خصماً مجرد أنه لمس موضع الألم، ولا يُنظر أن تأتي الحقيقة دائماً في الأسلوب الذي نحبّه. ثم إلى برنامج التزكية والذكر والصلاة؛ توبةٌ تُخرج الفساد، وذكرٌ يملأ موضعه، وصلاةٌ تجدد الاتجاه، وعملٌ يشهد أن القلب قد تغير.

أما في المجال المعرفي، فتعيد السورة وصل العقل بالوحي من غير أن تلغي وظيفته؛ فالكون يدعو إلى البحث في الخلق والتسوية والتقدير، والوحي يمنح هذا البحث غايته الأخلاقية. ليست المعرفة كثرة معلومات وحدها، بل هدايةٌ إلى الاستخدام الصحيح لما نعرف؛ فقد يزداد الإنسان قدرةً على تغيير العالم من غير أن يزداد حكمةً في تحديد الوجهة، وحينئذ يصح التقدم تضخيماً لأدوات نفسٍ لم تترك. إن سورة الأعلى تريد عقلاً يقرأ الكون ولا ينسى خالقه، وروحاً تذكّر الله ولا تهجر مسؤوليتها في الأرض، وحضارةٌ تتقدم في الوسائل من غير أن تسقط غاياتها في قبضة الهوى.

وفي المجال الاجتماعي، تعلّنا السورة ألا نخدع بالعلو الظاهر؛ فكل قوة بشرية محكومة بالأجل، وكل سلطان لا يقيم العدل يحمل في بنيانه أسباب غثائه. لكنها لا تدعونا إلى انتظار سقوط الباطل في سلبية، بل إلى مقاومته بقلوب لا تمنحه علوًا داخليًا، وبأعمال تستمد ثباتها من يقينها بأن الله هو الأعلى وأن حكم الآخرة أبقى من أحكام اللحظة. قد يخسر الإنسان موقعًا لأنه رفض الخيانة، لكنه يكون قد حفظ موضعه في ميزان لا يفسده الإعلام ولا تكتبه السلطة.

وفي المجال النفسي، تحرر السورة الإنسان من استبداد الفقد؛ فما دام كل مرعى سيصير غشاء، فلا ينبغي أن يربط وجوده بشيء إذا رحل انهارت معه هويته. يحب، ويعمل، ويبني، ويطمح، لكنه يجعل مركزه في الله، حتى إذا تغيرت الأشياء تألم ولم يتلاش، وحزن ولم يفقد الطريق. إن من عرف الأعلى يستطيع أن يودع ما دونه، ومن أيقن بالأبقى لا تبتلعه نهايات الأشياء العابرة.

الكلمة الأخيرة

تبدأ سورة الأعلى برفع البصر، وتنتهي بتصحيح الاختيار؛ ترفع بصرك إلى الأعلى حتى لا تنخي روحك للأدنى، ثم تترك الأبقى حتى لا تبيع الأبد للحظة. وبين الرفعة والبقاء تعلّمك أن الكون مخلوق مسوّى، وأن الحياة

مقدرةً مهدية، وأن المرعى مهما اخضر يحمل في الزمن غشاه، وأن القرآن ذكرى محفوظة، وأن القلوب تنقسم بحسب خشيتها، وأن الفلاح ليس فيما تملك بل فيما تتركى عنه وتتصل به، وأن الصلاة ليست توقفاً عن الحياة بل استعادةً لمعناها.

إنها سورة ترد الإنسان من الغفلة إلى الذكر، ومن التبعثر إلى المركز، ومن الافتتان بالصورة إلى قراءة المصير، ومن عبودية العاجل إلى حرية من يعرف أن الآخرة خير وأبقى. ومن عاشها لم يحتقر الدنيا، لكنه لم يعد يخدع بها؛ يأخذها من يد الله نعمةً، ويؤدي حقها أمانةً، ثم يرسل منها إلى آخرته ما يستطيع، عالماً أن ما بقي في يده سيفارقه، وما قدمه لله سيجده.

وحين يشتد صخب العالم، وترتفع أصوات القوة، وتزاحم المغريات على قلب الإنسان، تعود السورة كلها إلى كلمتها الأولى، كأنها تعيد وضع الكون في ترتيبه الصحيح:

﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾.

وحين يفتتن المرء بمرعى الحياة، ويكاد ينسى ما وراء اخضرارها، تأتیه كلمتها الأخيرة بميزانٍ لا يحتل:

﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾.

وبين الأعلى والأبقى تتحدد حقيقة الطريق: أن يكون الله أعلى ما في القلب، فتكون الآخرة أبقى ما يقصده العمل؛ ومن استقام له هذان المعنيان، لم تعد الدنيا قادرة على استعباده، ولم يعد الفناء قادراً على سلب حياته معناها، لأنه اتصل في رحلته القصيرة بمن لا يزول، وزرع في الأرض ما يرجو أن يحصده في الأبد.

بحمد الله وفضله